حبيب الزحلاوي

أنا غريب

١٩٤٧

حبيب الزحاوي

أنا غريب

١٩٤٧

الإهداء

ولدى الحبيب نبيل

لم تكن الآلام على ما بها من وجيعة مهذِّبة ، سوى عرَض فى حياتى ؛ ولذلك وسمنى تصويرها وترديد أنّاتها بهذه الحكايات ; أما فرحة الحياة ، فرحتى بك يا ولدى الحبيب ، فهى الجوهر فى وجودى كإنسان . فإن عجزتُ حتى الآن عن رسمها ، فلأنك لا زلت تملك علىّ مسالك سمعى وبصرى ، ولكنى بك أولاً ، وبأختك الحبيبة نجلاء ، سأفتح روحى لمباهج الحياة ، واستبدل بأنّاتى الحزينة ، ابتساماتى البهيجة ؟

حبيب الزجلاوى

القاهرة فى ٢٠ يونيو سنة ١٩٤٧

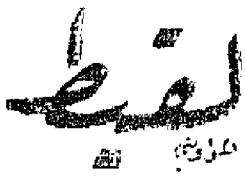

لقد رأستُ هـذا الملجأ يا سيدى من نحو ثلاثين سـنة ، ولم يسألنى أحد سواك هذا السؤال من قبل . ولست أعرف عن اللقطاء إلا أنهم وجدوا — كما تقول تقارير البوليس — على أرصفة الشوارع ، أو قرب صناديق القمامة ، أو عنـد أبواب الجوامع والـكنائس ، ولا أذكر من السيدات غير واحدة جاءت من وقت قريب تحدثنى عن طفلها قبل إيداعه الملجأ . أما الرجال فلا أذكر أن جاء واحد منهم يفتش عن جنايته .

عندى فى الملجأ مئات من اللقطاء من كل جنس ، وقد صيرتنى المرانة خبيرة بعلم الأجناس ، صحيحة الفراسة . ويمكننى ن أدعى أن النظرة الواحدة إلى رأس طفل تجاوز أربعة أشهر من عمره تجعلنى أحدد عنصره ، وأميز بين الأصل المصرى والعربى والتركى واليونانى . واستطردت تقول وهى تبتسم : لا شك يا سيدى فى يسرك واقتدارك ، فما إن قرأت اسم سعادتك في البـطاقة التى شرفتنى بها حتى وثقت بأن الطفل الذى ستتبناه سيكون من السعداء ، ولعلك أول رجل فى رونق الشباب جاء يطلب لقيطاً يتبناه .

قلت لك يا سيدى إن سيدة واحدة فقط أتت تحدثنى عن طفلها قبل أن تودعه الملجأ ، لم يطاوعها قلب الأم أن تلقى بطفلها إلى الأقدار ، فلجأت إلىّ لتتخذنى أمًّا تودعها سرها ، ثم تلقى بفلذة

كبدها بين يدى . هل يطيب لك يا سيدى سماع حكايتها كما سمعتها منها ؟

الفتاة يا سيدى يونانية وسيمة الطلعة ، ساحرة النظرة ، متوثبة الروح ، لا تكاد تهدأ لها حركة ، تتكلم فتفيض نفسها على لسانها . وهاك ما قالته لى :

« قذفت بى موجة الحرب إلى شاطىء السلامة بمصر عقب أن اجتاح الألمان بلادنا وصبت طياراتهم علينا الخراب والعذاب والموت .

لقد كنت واحدة من مئات أمثالى نجهل ماذا حل بوالدينا وأخواتنا وأهلنا ، ولا نعلم إلا أن السفن الإنجليزية قد حملتنا إلى مصر ، ثم نقلنا إلى معسكرات في الصحراء ، ولم نلبث أن ارتدينا ثياب الجندية ، وأخذنا نقوم بالتمرينات العسكرية وبكل ما يطلب إلينا عمله .

شعرت بعد أشهر قليلة بالوهن يدب إلىّ والضعف ينوش جسمي ؛ والمسرات التى كانت السلطات العليا تدخلها على نفوسنا ، إن هى إلا مخدرات تذهل العقل وتقعد به عن التفكير الصحيح .

تمارضت على ما فىّ من حيوية فوّارة ، فركنت إلى الفراش أستعرض فى عزلتى حالى التى لا يطيقها عاقل ، ولا يرضى بها سوى مستكين يائس أو مرغم مقهور ، وتبين لى فى استجمامى أن حياتى إن هى إلا مغامرة شريرة دفعت إليها دفعاً ، وأنى فقدت أشياء كثيرة عزيزة أهمها مستقبلى ثم أنوثتى ثم غايتى من الوجود ،

وصرت من شذاذ الآفاق من أجل لقمة أتبلغ بها وكساء ألبسه .

هجرت المعسكر ونضوت ثياب الجندات ، ورحت أضرب فى عرض الحياة ، لا أتعفف عن بيع متعة ، لقاء لقمة ، أو كسوة ، أو مأوى .

أرجوك يا سيدتى ألا تحدجينى بنظرة نكراء إذا أنا فتحت لك مغاليق صدرى ، وبحت لك بأسرار نارية كامنة فيه ، وأرجو أن ترحمينى إذا أنا اعترفت لك بأنى استهولت الشر المطلق فى حياة الجندية ، فلذت بشر محدود جعلت عنانه بيدى ، وصرت إذا اقتنصت جنيهاً واحداً من شيطان رجيم أو إنسان رحيم ، ضممت عليه أصابعى ، وأنفقت منه القرش الواحد تلو القرش أشغل معدتى بما أشتريه بالقرش والمليم عن الركود والجوع ، وكنت بعد ذلك يا سيدتى أتعفف حتى تنفد قروشى .

نفحنى مرة ضابط عاد من ميدان الموت بهبة من المال تلقاء متعة معربدة مجنونة ، فخطر ببالى أن أقامر فى سباق الخيل .

ربحت مرة ثم ربحت ، فلم تأخذنى نشوة الربح ، ولم تقو على الدفع بى إلى مغانم اللذة ، بل أحسست بميل ملحاح إلى الاعتكاف فى غرفتى لا أبرحها إلا لقضاء حاجة لا محيد عن قضائها ، ثم ألوذ بها من جديد لتكتنفنى وحدة أحبها وانزواء يشعرنى بالكفارة والندم .

اتخذت سباق الخيل ديدنا ، ولكنى كنت حريصة جد الحرص على ألا أجازف فأخسر كل ما أملك ، مخافة أن أجبر على الانحدار فأستهين من جديد بأعز ما أملك .

همس الشيطان — ولا أدرى كيف ! — فى أذنى وأنا فى ميدان السباق أن أراهن على الحصان الجديد « فايز » .

ما كنت أعرف هـذا الحصان ، ولا رأيته قبل اليوم ولا فى هذه الساعة أيضاً ، ولا سمعت به إلا وأنا فى طريقى إلى السباق من متكلم همساً عنه ، ولا أحسب أيضاً أن غيرى من هواة الرهان على خيل السباق أو مدمنيه سمع باسم هـذا الحصان الجديد الذى أقحم اليوم على الخيل المتسابقة إقحاماً .

تركت مكانى على عجل ، واختطفت قائمة أسماء الخيل التى تجرى فى الشوط ، فإذا باسم الحصان « فايز » بذيلها .

أسرعت إلى شباك التذاكر ولم يبق على إيصاده سوى بضع دقائق وإذا بى ألمح رجلا كأنه يراكضنى .

سمعت لهاث الراكض ، ولا شك عندى فى أنه سمع دقات صدرى . اصطدم رأسى بكتف هذا المزاحم حين بلوغنا شباك بائع التذاكر ، وشهرت بيده القوية ندية بالعرق تنحط فوق يدى الصغيرة فتغطيها ، وسمعته يقول للبائع : أعطنى عشر تذاكر من فئة الجنيه على الحصان « فايز » ، وقلت أنا فى التـو وبالنبرة الآمرة نفسها وبالجملة اللاهثة أن يعطينى عشر تذاكر من فئة الجنيه على الحصان « فايز » .

نظر البائع إلينا نظرة فيها من معانى الاستفسار والاستغراب ما فيها ، فعمد إلى دفتر فانتزع منه عشرين تذكرة ودفعها إلينا كأننا مشتر واحد .

تناول هذا الرجل الغريب التذاكر كلها وأخذ يعد عشراً منها عدًّا وئيداً بادى التعمد .

كدت أصفع هذا الرجل المديد القامة ، العريض المنكبين ، المسبل عينيه فوق التذاكر يعدها كأنى شىء لا يستأهل أن ينظر إليه .

ناولنى التذاكر ، فوقعت نظرتى الحادة الشرسة على نظرته الهادئة ، ولكن سرعان ما تبدلت نظرته وظهرت الانفعالات الفجائية عليه ، فقبض يده عن إعطائى تذاكرى ، وأخذنى بحركة عصبية من ذراعى فجذبنى إليه ، وسمعته يقول لى ونحن نهرول صوب حلبة السباق : لقد أشركتك فى حظى ، كما وقع قلبى فى شراك لحظك ... هيا أسرعى فإننا سنربح ... أجل سيفوز الحصان « فايز » بالسبق وسيندمج حظى فى حظك فنسعد معاً .

كان يجرنى وهو يركض ، وكنت أطاوعه متهالكة منقادة فاقدة الإرادة . ولما بلغنا الشرفة المطلة على حلبة السباق ، كانت الخيل قد شرعت تجرى ، فتعلق بصرى بالحصان « فايز » و بالرقم البارز على ظهر فارسه القزم ، ولم أفطن إلى أن ذراعى مكبلة بقبضة الرجل الغريب إلا وقتما عمدت إلى حركة يدوية أستفز بها حماسة فارس الحصان « فايز » ؛ فقد فطنت عند ذاك إلى أنى مقيدة ، فانتزعتها بعنف ، والتفت صوب الرجل الغريب فصفعته بكل ما أوتيت من قوة عضلية وقلت وأنا فرحة ... سيربح الحصان ... سيربح الحصان ... ولم أكد أهدأ من انفعالى والتفت إلى خيل السباق وهى فى نهاية جولتها

مقبلة تنهب الأرض ممدودة الأعناق ، حتى رأيت الحصان كأنه يطير بقوائمه لا يقفز ، ورأيت راكبه القزم منبطحاً فوق السرج ، وهو يسبق الخيول المصلّية بأمتار ، فلم أتمالك أن التفتّ إلى الرجل الغريب شريكي ، فرأيت صدره قبالة صدري ووجهه المشرق كذلك ، فتعلقت بعنقه كما لو كان خطيبي أو حبيبي ، وأحسست مع انفعالي العصبي بقبلة منه تتغلغل هادئة مطمئنة في كياني ، فتراخت مفاصلي وكدت أفلت ، ولكنه كان يحملني ويضمني بذراعيه القويتين .

مشينا صامتين صوب خزانة السباق ، فقبضنا مبلغاً باهظاً من الأوراق دسها الرجل كلها في حقيبتي . وإذ كنا في السيارة عائدين صوب المدينة قال لي بصوت خافت هادئ كأنه يستوحيه من أعماق نفسه :

أكون من أسعد الناس يا آنستي لو رضيت أن أعايشك .

قلت وكأني أفيض بوجداني وعقلي : على أي نحو تريد معايشتي ياسيدي ؟

فقال : على نحو يرضي الله والضمير وقوانين المجتمع .

استسلمت لزوجي استسلاماً مطلقاً ، وعشت معه عيشة زوجية رضية هانئة ، لا تكدر صفوها التفاتة إلى الماضي وقد دفناه ، ولا طموح إلى مستقبل يزهر بأكثر مما نزهره نحن من سعادة متبادلة .

عرضاً عرفت أن لزوجي الحبيب والدة وإخوة وأخوات ، ولكني تعمدت التجاهل حتى لا أزعجه في أمر كتمني إياه لغرض ما ، ثم تبين لي أنه من أصحاب المكانة والصيت الطيب ، تردد الصحف اسمه مقروناً

بالتبجيل ، وقد سكتُّ عن ذلك أيضاً مغتبطة مسرورة بزوجى الحبيب .

لم يعوّدنى زوجى الابتعاد عنى ولا التخلف عن البيت ؛ لأن حياتنا كانت شبه رتيبة ، هو فى ديوانه إلى ما بعد الظهر وأنا فى بيتى أدبر شؤونه ، وقلما كان يصحبنى فى نزهة أو تسلية من التسالى . أما أنا فقد كنت أوثر البقاء فى البيت على الخروج وحدى ، ولكنى كنت أحرص على جعل وكرنا جنة للغبطة والسرور وفرح النفس .

قال لى ذات عشية إنه ذاهب لقضاء ساعة مع معارفه ، فلم أعارض فى ذهابه ، بل حببت إليه قضاء بعض الوقت مع الأصدقاء ؛ لأن فى مجالسة الناس فوائد اجتماعية وأدبية .

همست فى أذن زوجى الحبيب خبر اضطراب الجنين فى أحشائى ، وكنت أتوقع أن يضمنى إلى صدره يقبلنى قبلة الأب العتيد للأم المتيدة ، ولكنه اكتفى بالابتسامة والسكوت .

أخذت ساعات جلوسه إلى رفاقه تتكرر وتطول ثم تزداد ، ولكنى ما كنت أحمل ذلك على محمل التباعد المقصود ، أو الإهمال المنتوى .

رغبت إليه مرة ورجوته مرة ثانية أن يمدنى بقماش أو بإذن من مصلحة التموين للحصول على أقمشة تصلح لثياب الطفل ، فدهشت لما نفحنى بالمال أشترى أنا ما يلزم لطفلى من السوق السوداء ! !

احتملت هذه الصدمة من زوجى الحبيب وكأنى رميت بنار السعير .

أخذت أخيط ثياب مولودى وقد بللتها بدموعى ، وأسهر فى خياطتها حتى ينتصف الليل فى انتظار عودة الزوج الحبيب .

ثقل حملى وكدت أنوء بخدمة البيت ، ولكنى جاهدت بقدر ما أسعفتنى قواى ، حتى أجعل كل شىء فى بيتى على ما تعوّده زوجى الحبيب .

لم يبق للوضع سوى أيام معدودات ، ولكن زوجى الفطن اللبيب تجاهل الأمر كأنه لا يعنيه . ولما سألته أن يمدنى بأى الرأيين أصوب : أألد فى بيتى فأكون مشمولة برعايته ، أم ألد فى المستشفى وهو أضمن لحياتى وأبقى على راحته هو ، أجاب إجابة من يستوى عنده هذا الرأى وذاك .

كاد الدمع يطفر حماً من عينى ، ولكنى كظمت لوعة تأججت فى صدرى وجحيماً استعر فيه ، وصبرت حتى لا أوذى جنيناً فى أحشائى .

يممت المستشفى وحدى ، وقد ودّعنى زوجى بقبلة ناعسة ذكرتنى بقبلته الأولى ، تلك التى صيرتنى من أسعد الناس ، وهاهى ذى قبلته الناعسة تنعق منذرة بشقاء قريب .

أدركنى المخاض ، فأخذت أتلوى من الوجع وأصرخ من الألم . لم ألذ بربى أستمد منه الخلاص ، بل استصرخت زوجى العزيز ، ولجأت إليه أستدعيه بنداء من روحى ، لا لأنى أشرفت على الموت لعسر فى الولادة ، بل ليستقبل ولده وهو ثمرة حب طاهر مقدس .

سمعت صرخة مولودى الأولى ، فكدت أجن من الفرح ، وقد نسيت آلامى كلها .

آه ! كم تمنيت أن أتبين أذكر مولودى أم أنثى ، ولكنى أغمى علىّ ، وصرت لا أحس بما كان يدور حولى .

قالت لى الراهبة المواسية : إن زوجى سأل عنى بالتلفون و إنه قادم لزيارتى ظهر اليوم ، وقالت لى كذلك إنها لم تلمس فيه فرحة الوالد بولده البكر .

رغبت إلى الراهبة أن تكون إلى جانبى ساعة حضوره لزيارتى . وعند ما حضر حيانى بابتسامة عريضة باهتة لا حياة فيها ، وقد صدّه وجود الراهبة بجانب سريرى عن تقبيلى . سألنى عن صحة مولودى وهنأنى بسلامتى .

لقد اعتذر عن غيابه الاضطرارى بحجة أن الحكومة انتدبته لعمل بعيد عن العاصمة لم يتمكن من الإفلات منه ، وأنه عائد فى الغد إلى إتمامه ، وأن ظرفه الخاص هذا سيقهره على الغياب مدة قد تطول إلى عشرة أيام أو أكثر ، وقد نصحنى بالبقاء فى المستشفى مدة شهر أستعيد فيه صحتى بالتزام الراحة ، وهمس فى أذنى أنه دفع الأجر كاملا ، ولم يبخل على الخدم بإكرامية تفرحهم .

تعمدت السرور وشكرته على حسن اهتمامه بى .

رغب إلىّ قبل انصرافه أن يرى الطفل ، فقالت الراهبة الخبيثة : إنه يغط فى نومه فلم يلحّ فى رؤية ولده .

كدت أنفجر فأفيض بكلام يظهر آلامى المكبوتة ، لولا نظرة من الراهبة المواسية استوقفتنى فألجمت لسانى .

عجبت لأمر زوجى وانقلابه فجأة من حال إلى ضدها . قلت لا بد من حدث خطير لا شأن لى فيه صيّره إلى حاله تلك وقد بيتُّ النية ،

رغم النفاس ، على استكشاف سريرة زوجى .

مضت عشرة أيام على تلك الزيارة لم أنقطع خلالها عن مطالعة الصحيفة التى كانت تنشر أخبار زوجى أكثر من غيرها من الصحف .

آه لو عرف المسكين أنه هو الذى علمنى قراءة اللغة العربية وكتابتها ، وأنى ما أقبلت على تعلمها إلا لأقرأ أخباره وحده ، وأن الخبر الذى قرأته اليوم هو الذى فسّر لى حال زوجى وأوضحها لى بأجلى بيان ! !

أعرف أن زوجى يدين بدين سمح يبيح تعدد الزوجات وييسر الطلاق ، وأعرف أنى تقبلت دينه حبًّا له ، وما عرفت قط ، قبل الآن أن شريعة قومى ، وعادات أهلى متأصلة فى نفسى إلى الحدود التى يظن بها أنها طبيعية لا مكتسبة ، وأن الشرك بالله أهون على قلب امرأة مثلى لا تفقه للتحقيقات العقلية معنى من احتمال مشاركة ضرة .

لقد عزمت على إتيان عمل حاسم يزيل كل عقبة فى طريق زوجى ويمهد له حياة جديدة هنيئة . ولكن كيف الوسيلة إلى تحقيق هذه الأمنية دون أن أعرض موقفى إلى تصفية نهائية بغيضة ؟ أريد حقيقة اختزال طريق ، ولكنى أنكر تصفية حياتى الزوجية ، لا من إفلاس لأنى ما زلت فى مستهل الصبا ، بل لأنى أحب زوجى .

لقد وقفت فى مفترق الطريق حيرى هادئة ، قلقة وجلة ، مقدامة متخاذلة ، لا أستقر على رأى ، ولا أبتّ فى أمر . وأخيراً يممت دار القنصل اليونانى ، فلفقت لرجالها قصة من نسج الخيال استدرّت عطفهم علىّ ، فرضوا إعادتى إلى بلدى .

ثم سكتت هنيهة ريثما كفكفت دموعها وقالت :

ها أنا ذى أقف بين يديك ياسيدتى ، لأسمع منك الحكم ببراءة طفلى من وصمات الإنسان ، تلك الوصمات الباطلة التى تخدم الشر ، وتبذر الإثم ، ويتطوع واصموها فى خدمة الشيطان .

ستقلنى الباخرة بعد غد يا سيدتى ، وإنى أودعك فلذة كبدى ، وقد أودعت زوجى قلبى من قبل ، فليقدر الله لابنى ما يشاء ، وليفعل زوجى بقلبى ما يشاء ؛ لأنى كنت له وفية منذ عرفته ، وسأحتفظ بوفائى لحبى حتى النهاية » .

واستطردت مديرة الملجأ قائلة : إن الطفل بهىّ الطلعة يا سيدى ، بسام الثغر ، إن بكى خلت أنغاماً من ألحان الملائكة .

. . . . . دفعت الباب صبية فى ثياب بيض تحمل بين يديها طفلا قدّمته للسيدة مديرة الملجأ .

هوذا الطفل الوديع يا سيدى ! ها كه يا سيدى ... انظر إلى وجهه فهو يبتسم . . . يالله ما الذى يبكيك يابنى ؟ . . . إنك تصرخ ولا شك صرخة الفرح بحياتك السعيدة المقبلة ، وإنك ستكون خير ولد لخير والد .

نهض الرجل وهو لا يقوى على كفكفة دموعه مادًّا يديه للطفل وقال :

تعال ياولدى الحبيب فإنى سأسكب فيك روحى . . . ليغفر الله لوالدتك . . . وأسأله تعالى أن يغفر لى .

الصميم

ما كدت أبتعد بضعة أمتار عن المقهى حيث كنت جالساً مع طائفة من أصدقائى حتى شعرت بقبضة يد رقيقة تستمهلنى . التفتّ فرأيت واحداً من أولئك الأصدقاء الجلاّس ، فلمحت فى نظراته شبه استعطاف ، فقال لى بلهجة لا تخلو نبراتها من قوة : أريد أن أسألك بشرط أن تجيبنى بصراحة : ما هى عقدة القصة ؟ وما هى الحبكة ؟ ما هو العرض والفكرة والوحدة التى تكلمت عنها فقلت إنها عناصر حيوية للقصة ؟ أنا يا صديقى أحسن كتابة القصة ، أو بعبارة أخرى أحسن خلقها فوراً ، وأبتدع وقائعها وأشخاصها ابتداعاً ، وأجذب المستمع إلى الانتباه إلىّ ، ولا أتركه إلا بعد أن أشبعه وأمتعه بلذات من الخيال المزوّق ، والتلفيق الموشّى بألوان من حسن الكلام ، أليس هذا هو الفن ؟! واستطرد قائلاً : ما دام الأمر كما ذكرت لك ، وأزعم أنى ذكرت الحقيقة الواضحة عن البناء الفنى ، فما هى إذن العقدة ، والحبكة ، والعرض ، والفكرة ، والوحدة التى تكلمت عنها ؟ وأحسب أنى فهمت من مجمل كلامك أن لا قيمة للقصة الخالية من هذه الخصائص ، فهل هذا صحيح ؟

أعجبنى ما يبدو على وجه هذا الشاب من مسحة الطفولة ، ورفقت به وبأمثاله ممن يتغالبون فى الآداب والفنون ويستهينون بها كأنها مهلة التناول ، فقلت :

تعال معى إلى النادى ، فهناك أستمع إليك بانتباه وأجيبك إلى طلبك عن رضا .

قال : فى الجلوس فى المقهى متعة للنظر لا جود لها فى الأندية .

فقلت : ليس بى ميل إلى شغل الذهن بمراقبة المارة ، وليس بى ذلك الظمأ إلى المرأة الذى ينتابكم أنتم يا جلاس المقاهى .

قال : نحن على غير مذهبك الفردى يا صاحبى ، نحن جلاس الأفاريز ، رواد المقاهى ، نتضور جوعا ، نتلهف على لفتة من فتاة ، أو نظرة من امرأة . ألا تحسّ مثلنا بالمجاعة الجنسية وقد طغت واستعصى أمرها على وزارة الشؤون الاجتماعية ؟

ابتسمت لكلام هذا الشاب المتحمس ، فأخذته من يده فمشى معى . فلما دخلنا المصعد الذى سيرتفع بنا إلى الدور العاشر من البناء قال : أنت مصرّ على الجلوس فى النادى وَكْر الكهول والشيوخ من أرباب المال ؟ حسن ، سأجلس معك فى هذا النادى المرتفع المترفّع عن الناس ، وأقص عليك قصة من صميم الواقع ، وأنا قمين بأنك ستشهد لى ببراعة الارتجال ، وبأن القصة هى القصة ، أعنى أن العقدة والحبكة ، والفكرة والوحدة ، إن هى إلا افتعالات ، أما إذا كانت شيئاً غير ذلك فستدلنى عليه .

ابتسمت أيضاً لهذا الادعاء الجديد الذى يمثل ادعاءات الشبان وهم يتوهمون أن الأمور وفق أمزجتهم الرخوة لا وفق الواجب فى معرفة الأصول ، وقلت لصاحبى بعد ان انتحينا ناحية فى النادى مزدانة بأصص من الزروع دائمة النضارة الربيعية : يحسن أن تجلس هنا

فتقص علىّ قصة شعرية يرتجلها خيالك الخصب وينتزعها من صميم الواقع كما قلت .

— أرجو ألا تهزأ بى . استمع إلىّ :

« وضعت حقائبي فى المكان المعدّ لها ، وجلست على المقعد الذى احتجزته فى عربة القطار ، ثم التفت لأرى رفاق الطريق الذى سأقطعه بمرحلة واحدة من مرسيليا إلى باريس ، فلقيت سيدة تتألق نضارة وشباباً ، وضّاحة المحيا ، بادية الفتنة ، وسمعتها تقول للرجل الجالس إلى جانبى : « ألم أقل لك إنه غير فرنسى ، إذ لو كان فرنسيا لكان حيّانا بإشارة بسيطة ساعة دخوله ، ولما ألهاه المودعون ولا المشاغل الذهنية عن أداء التحية الواجبة » .

وسمعته يقول لها : « لِمَ لا تقيمين للتقاليد والعادات اعتباراً ؟ لماذا تفرضين على غير الفرنسيين الأخذ بعاداتكم وتقاليدكم ، وقد تكون هذه التقاليد التى ترينها حميدة عندكم مستهجنة عند بعض الأقوام ، وربما كانت مستقبحة عند أقوام آخرين أمثال الإنجليز مثلا الذين لا يحيّون من لا يعرفون مهما كانت الظروف والمناسبات » .

فهمت من لهجة الرجل ومن قسمات وجهه ولون بشرته أنه أميركى يحسن التعبير عن خواطره باللغة الفرنسية ، وكان يلفظها صحيحة ولكن ببطء ممضّ أوجع نفس السيدة الفرنسية الجيّاشة ، وأدركت أن مدار الحديث يدور حولى لأنى أخذت مكانى فى عربة القطار ولم أحىّ من فيها ساعة دخولى !

هل أدخل فى القضية طرفاً ثالثاً ، على حد تعبير المحامين ، وهى قضية خاصة بى برغم قيامها بين السيدة الفرنسية والشاب الأميركى أم ألزم الصمت وأحترم سجية نفسى وعادات قومى وأسكت عن الكلام مع من لا معرفة لى به ؟ أليس فى ذلك تطفل أو تخط للعرف ؟ أو ليس هو وسيلة سهلة مؤدية إلى التعرف بهذه السيدة الجميلة المغرية ؟ أو ليس فى ذلك فائدة للوصول إلى ناس يطيب لى أن أحدثهم عن قومى و بلادى ، وقد لا يعرفون عنهم شيئا أو يعرفون ما تنقله لهم الدعاية المغرضة ، والفكر الاستعمارى ، وجهالة بعض الكتاب الطائشين ؟ !

جالت هذه الخواطر فى ذهنى والسيدة والرجل ما زالا يتحاوران ويتناقشان : هى تصرّ على أن عادات قومها مرتكزة على قواعد آداب الاجتماع ، وهو ينكر أن للآداب الاجتماعية قواعد ثابتة . هى تقول إن قواعدها الفن والذوق ، وهو يقرر أيضاً أن مباءات الفن هى معارض النحت والتصوير ودور التمثيل و بعض دواوين الشعراء وكتب الأدباء والروائيين ، وأن الذوق مسألة فردية وإحساس ذاتى . هى تغضب من تعمده إهمال ذكر المرأة فى أنها الفن كله باعتبار أنها الباعث الأول على استفزاز ملكات الفن والإلهام الفنى . وهو ينكر عليها بعض دعواها ويؤيد بعضها ويقول : « إن المرأة موحية حافزة ، وليست هى بشىء فى صميم الفن » !

هى تصرخ قائلة : إنكم معاشر الأميركان لا تتذوّقون الحياة إلا عن طريق الدولار ، وإنكم ... وإنهم عبدة الدولار فقط . أليس كذلك

يا مسيو ؟ والتفتت إلىّ تدخلنى فى هذا الجدال .

كاد يرتج علىّ حين فاجأتنى بسؤالها وهو استنجاداً بى أكثرُ منه سؤالا ، ولكنى تمالكت نفسى وقلت :

إخال أنى كنت السبب فى هـذا الحوار الذى بلغ بكما إلى هذه النتيجة . فهل تسمح لى سيدتى أولاً أن أحييها وقد آليت على نفسى مجاراة الفرنسيين وتقليدهم ما دمت فى بلادهم ، ثم أدخل فى الحوار ، لا كفضولى متطفل قد تعرضه صفاقته لسماع ما يؤذى إباء النفس ، بل كرفيق الطريق الذى يحرص على إبقاء أطيب أثر فى نفوس رفاقه ؟

هاك يدى ! أما أنا فمدام « فرانس » ، وصديقى هذا هو مستر « أميركا » . وأنت يا صديقنا على هذا القياس من تكون ؟

رطبت شفتى بقبلة من يدها البضة وقلت متابعاً على المنوال نفسه : أنا يا سيدتى مستر « إيجبت » .

إيجبت ... إيجبت ! رددت السيدة كلمة إيجبت وهى تلفظها ممطوطة ممدودة بتودة كأنها تعود بذاكرتها آلاف السنين إلى الوراء تستعرض بلمحة واحدة آثار الماضى السحيق الباقية على الدهر وتقول : أنت إذن مصرى ؟ ! .

نعم ياسيدتى أنا مصرى من سكان القاهرة ، وأنت فرنسية ... فقاطعتنى قائلة : « فرنسية باريسية » وصديقنا أميركى من واشنطون أو نيويورك وليس قطعاً من هوليود . وها نحن أولاء الثلاثة نمثل ثلاثاً من قارات عالمنا ، ونمثل أيضاً أعرق مدنية عرفها التاريخ القديم وهى تتوثب الآن للعودة

إلى الحيـاة ، وأعرق مدنية حديثة ستتغلب عليها مدنية أحدث منها ، ومدنية جديدة فى العالم الجديد قد يكون لها طابع خاص سوف يتحول بسرعة إلى طابع يعم العالم . وأردفت كأنها تتدارك فوات فرصة : نعم ! نعم سيكون الدولار طابع أميركا الخاص ، كما يحاول الروس أن يجعلوا الاقتصاد أساساً لنظام العالم الاجتماعى الجديد . قالت السيدة كلمتها عن الدولار ، وضحكت ضحكة عالية لها رنة الأوتار المتزنة والنغمات الرقيقة .

قلت : العالم يا سيدتى لا يقوى على السير فى نظام اقتصادى محض بل يستحيل عليه المضى فى طريق السعادة البشرية بغير دوافع الروح .

— هذا صحيح يا مستر إيجبت ، ولـكنى ألاحظ أن مدام فرانس تتحدانى فى كل ما أقول . فإذا كان ذلك يلذ لك يا سيدتى فلا أمانع أنا الأميركانى أن فى تقرير الدولار طابعاً لبلادى ، وهو بالفعـل الإله الذهبي الموحى إلى كل الناس كل الرغبات والشهوات .

— المرأة يا مستر أميركا ، أرجوك ألاّ تنسى المرأة ، بل أحتم عليك عدم نسيانها ؛ لأنها الروح الذى تكلم عنه مستر إيجبت ، ولأنها وحدها الموحى لـكل الناس كل الرغبات والشهوات — على حـد تعريفك أنت — بل هى وحدها موحية الحياة والحب .

— لو كل النساء كن مثلك يا سيدتى لما ترددت فى الاعتراف بذلك ولـكن . . .

— دع يا مستر أميركا قرض المديح ونظم الثناء والإطراء لأنها من طبائعنا الأصيلة التى لم تقتبسوها عنا بعد ، وهى وإن كانت ترضى غرور

المرأة وتدغدغ زهوها ، لا تقوم مقام الحقيقة التى لا محيص عن الاعتراف والجهر بها ، وهى « أن المرأة هى الإله الوحيد الموحى إلى كل الناس معنى الحياة والحب ، ولذة الوجود ، والفرح به على الأرض ، ولذة الألم والحزن أيضاً » .

قال مستر أميركا موجهاً إلىّ السؤال : هل تعترفون بألوهية المرأة فى مصر ، وبأنها مصدر إلهام يوحى إلى الناس معانى الحياة كما قالت مدام فرانس ؟

بلعت ريقى وتكلفت ابتسامة رضا وقلت : ليتك يا مستر أميركا تضع السؤال فى الصيغة التالية : هل بلغت المرأة الأميركية درجة من الرقى سمت بها إلى مقام يجعل الرجل يتطلع إليها فيه كما نتطلع كلنا إلى المرأة الأوربية باعتبار أنها الملهم معانى الحياة والدافع إلى الشعور بالفرح بها ؟

لقد نجحت فى تحويل الدفة ، كما يقال فى تعبير النوتية ، وفى رفع الأثقال عن كتف المرأة المصرية والرجل المصرى ، وفى إزاحة الألم عن نفسى من قول الحق ، وقد أفلحت فى ذلك : إذ ما كدت أنتهى من تحريف السؤال وتوجيهه إلى مستر أميركا ، حتى انبرت مدام فرانس تقول : « تخوانى معلوماتى حق القول بأن المرأة الأميركية أخذت تدرك قدر نفسها ، وستنجح فى صيرورة ذاتها مصدر حياة أفعل فى روح الرجل الأميركى من الدولار »

ما كادت تنتهى مدام فرانس من قولها حتى رأيتنى مدفوعاً إلى الكلام فقلت معقباً :

« سوف تصيّر المرأة المصرية ذاتها مصدراً لإلهام الرجل و إذكاء روحه متى خلصت من شوائب الطفرة ، و بعد أن ترغمها الآلام على التفكير فى ماضيها ومستقبلها بالقياس إلى حاضرها المضطرم بنيران الانتقال » .

— صحيح ما رمزت إليه بلباقة يا مستر إيجبت عن المرأة من أنها فى طور الانتقال الذى يعقب الانقلاب الاجتماعى . ويمكننى القول إن بواكير الانقلابات تكون من النساء وفى النساء كما تكون بوادر الثورات وطلائعها من شرارات يقدحها طلاب الجامعات بإيحاء غير مباشر من أرواح يقظة عاملة هادئة .

سكت محدثى الشاب وكاد يطول سكوته ، ولكنه رفع رأسه ونظر إلىّ نظرة استفهام واضحة . فقلت له ببرود : ثم ما ذا ؟

ما ذا ! ! نعم نعم ! كدت أظن أنى أنهيت القصة ، ولكنى نسيت فصلها الثانى .

دوّى رنين الجرس يدعو الراغبين فى الطعام من ركاب الدرجة الأولى إلى تناول العشاء ... وكان الكلام حتما لمدام فرانس التى أمرت أحد الندل (جارسون) بتهيئة مائدة لثلاثة أشخاص ... فكان طعام وكان شراب ، بل كان شراب وطعام وكلام وشعر وتوريات ورموز وتلميحات ومقارنة بين المرأة المصرية وأختيها الفرنسية والأميركية . وكادت تخطرم ثورة مدام فرانس لتوهمها أن أختها المصرية أوفر براعة منها فى إرضاء الرجل . . . !

عدنا إلى مقاعدنا وقد أذبل الشراب أجفاننا ، وأخمد قوة النضال الكلامى فينا ، وأذكى بطبيعة الحال قوة النظر الطويل والإعجاب الذى لا حدّ له ، والافتتان بهذه المرأة المملوءة حيوية وجمالا ونضارة وسحراً ، والممددة أمامنا على مقعد عربة سكة الحديد تحاول النوم على هدير القاطرة وصفيرها وقرقعة العربات .

لقد أحييت الليل أنا ورفيقى الأميركى نتحادث همساً حتى لا نزعج السيدة النائمة . وكان طبيعيا أن نختلف فى الرأى وأن نتحاور ونتجادل ثم نعود إلى صفائنا الأول ، وكان بديهياً بحكم الرغبة الكامنة ألا نختلف أبداً وأن نتفق اتفاقاً تامًّا على ألا نعيد الغطاء كلما سقط عن جسم هذه المرأة الفاتنة المتناومة ، وكان عذباً على أسماعنا قولها : يا لكما من شابين شقيين !

سكت محدثى مرة ثانية فلم أدعه يتمهل ، بل قلت له بنبرة جافية : ثم ما ذا ؟

صدمه سؤالى وكاد يتخاذل ، ولكنه تجلد وقال :

طلع الفجر ، ثم تفجرت أشعة الشمس ، وانجلت عروس بربة فرنسا بثوبها الزمردى النضر . وبلغنا باريس ، فافترقت القارات الثلاث ، وراح مستر أميركا ومستر إيجبت كل فى طريقه ، وراحت مدام فرانس تنثر القبلات وتتقبل القبل من مستقبليها عَلَى إفريز المحطة .

ربتُّ على كتف محدثى وقلت له ببشاشة أذهبت وقع الصدمة الأليمة التى صدمته بها عند سؤالى إياه تتمة القصة بقولى : «ثم ما ذا ؟» ليست

قيمة القصة يا صاحبي فى المادة التى تتألف منها ، ولا فى كيفية ترتيب تلك المادة ، بل قيمتها فى الكيفية التى تؤدى بها وفى عرضها عرضاً خاصا بمهارة فنية ، بالتشويق والترغيب ، فى صدق الرواية عن الحياة ، مضافاً إليها الخصائص الفنية التى ذكرتها فى حديثى مع رفاق المقهى . أما قصتك المرتجلة هذه ، فإنها تماثل حكاية واقعية وقعت لى حين رحلت إلى جزيرة رودس التى انتزعها الطليان من الدولة العثمانية مع بقية جزر الدوديكانيز .

قال : أترتجل قصتك ارتجالا ؟ فابتسمت لسؤال هذا الشاب وقلت :

* * *

« ألقت الباخرة « إيجيتو » مراسيها ، وأخذ الركاب يتزاحمون ويلتفون حول الضابط المكلف بالتأشير على الجوازات ، هذا يتوسل ، وذاك يطلب ، وذلك يتضرع ، وهذه تتدلل ، وتلك تغمز الضابط تستحثه على التأشير على الجواز ، أى على السماح بالدخول إلى جزيرة « الورد » كما يسميها الطليان .

لا بد من الانتظار الطويل ريثما ينتهى الضابط من أسئلة سخيفة كان يخص بها السيدات الجميلات .

اقتعدت مقعداً بعيداً عن الزحمة أنتظر دورى ، وإذا برجل يقترب منى ويقول : إنه مصري مثلى جاء ليقضى فترة من إجازة الصيف فى هذه الجزيرة التى قرأ وصفاً لها فى الصحف فخال أنها قطعة من جنات عدن ، وإنه ماجاء إلا منساقاً بفعل الدعاية التى أحدثتها الصحافة فى نفسه ، فى

حين إنه ألف الاصطياف فى مدن « الكوت دازير » . وأخذ يتكلم عن مصايف فرنسا وسويسرا وإيطاليا وألمانيا بلهجة حارة ولفظ عذب وعبارات مختارة من صحيح اللغة ، وكان يدعونى صديقه .

نظرت إلى وجه هذا الرجل الذى طرح علىّ صداقته ، فإذا به يمثل الدمامة بله البشاعة خير تمثيل ، أعمش ، أمرط الحاجبين ، أصلع ، فى جبينه وعلى خديه ندوب الجدرى ، وفى عنقه أخدود من أثر جراحة ؛ وهو فوق هذا أستاذ علم الزراعة فى الجامعة يحمل شهادة دكتور ... وقد أدهشنى عند ماقال لى إنه فى الرابعة والثلاثين من عمره وقد كنت أظن أنه أكبر من ذلك .

لقد سحرنى الدميم بعذب حديثه وطيب بيانه وحسن اطلاعه فانقدت إليه ، فذهبنا بعد أن تركنا الباخرة إلى أول فندق رضينا به اعتباطاً وقد أشرّ الضابط الإيطالى السمج على حوازى سفرنا .

ارتاحت نفسى إلى صداقة هذا الدميم : لأن فيه من جمال الصفات الروحية والخلقية ما يستر تلك البشاعة الواضحة المنكرة ، ولأن خفة ظله ، وحضور ذهنه ، وبراعته فى التنكيت ، تلقى ستاراً على دمامته المنفّرة .

اسمع يا صاحبى ! أحسب أن المشوّه كالأحدب والمخلع والأعرج وكل ذى عاهة يعتقد أنك ستسخر منه فيبادرك بسخرية مؤلمة . والظريف فى أصحاب هذه العاهات أن البارع منهم يمزج سخريته بالابتسام والضحك ، وبذلك يبطّن الانتقام بالمرح .

كنت ألقى صاحبى الدميم فى الصباح على مائدة الطعام ، ثم ننتحى ناحية فى بستان أو حرج بعيدين عن الناس وضوضائهم لنقرأ ؛ وكان رفيقى مولعاً مثلى بقراءة الكتب ، ثم نعود فنجتمع فنتحدث فيما قرأنا .

لم أسمع من صديقى هذا حديثاً يخرج عن دائرة الكتب وأسماء المؤلفين . ومن غريب أطوار هذا الدكتور الجامعى أنه يقرأ الأدب ويتذوقه ؛ وله فى أدبائنا المعاصرين نظرات صائبات ، وله آراء فى كلية الآداب أسكت عن ذكرها ، ولكنه يجهل الحياة ، يجهله المرأة ، وقد قال لى « إنه لا يعرفها ويهرب منها لأنها هبة الشيطان ، وعصا إبليس ، وسمّ الحية . وإنه ما من رجل يطاوع هواه ويساير شهوته فيقترب من امرأة إلا هو ضعيف العقل ممسوس من خبال الغريزة ؟ ! »

ضحكت فى سرى من ضلال هذا الرأى ، وانتحلت لصديقى عذراً فى إبدائه على هذا النمط المخالف لسنّة الطبيعة ، وقدرت ظروفه الخاصة التى جعلته ينفر من المرأة ويتجنى فى الحكم عليها ، ولم يعد الحديث عنها يدور لنا على لسان .

أخذت الوحشة من الوحدة يدب دبيبها فى نفسى ، والسأم يرين عليها من هذه البلدة الصغيرة الخالية من وسائل التسلية ، والتى لا أنيس لى فيها ولا سمير سوى الكتاب وصديقى الدكتور الجامعى اللطيف .

كل ما فى طبيعة (رودس) هادىء : البحر والأشجار ، السماء والناس ، والقلوب كلها هادئة أو شبه متحركة ، وقلما رأيت حتى فى الفتيات الرودسيات المرحات عيوناً تتطلع إلى القلوب أو ترميها بنظرات

فإن فعلت فهى تتطلع إليها خلسة تشتهيها شهوة هادئة ولا ترميها رمية صائبة .

كيف آلف الهدوء وطبيعة رفيقى علي النحو الذى وصفته لك ؟ وكيف لا تتوق نفسي إلى صخب الحياة وقد اتخذت « بيرون » وكل مؤلفاته رفيقاً لى وسميراً ومعلماً في اعتكافى فى هذه الجزيرة الهادئة ؟ كيف أجمع بين حياة هادئة فاترة فرضتها علىّ طبيعة وجودى فى هذه الجزيرة الساحرة مع هذا الصديق الدميم عدو المرأة البعيد عن الحياة ، وحياة قلقة حيرى ، صاخبة فياضة تضطرب فى صدر رفيقى « بيرون » العظيم وقد سارت عدواها إلى صدرى ؟

صممت على الرحيل ... ولـكن إلى أين ؟

قال لى رب الفندق إن فى أعالى الجزيرة فندقا جميـلا قائما على القمة بين أحراج الصنوبر تحسن الإقامة فيه فترة من الزمن ؛ فقطعت الرأى على الذهاب إليه . ومن المدهش أنى ما كدت أضع حقيبتى فى السيارة حتى رأيت حقائب صديقى الدميم تلقى فى السيارة ، ووجدت هذا الصديق نفسه ينحط فى المقعد ويجذبنى إليه جذباً وقال : « أتهرب منى إلى الجبال وتتركنى وحدى فى هذا البلد الميت ؟ »

قلت : قلبك هو الميت ياصديقى ! إن الحياة هى الحياة التى نعرفها نحن الأصحاء ، أما أنت المريض ميت القلب فلا تعرفها ولا تحس بوجودها .

لم يعر فورة نفسى التفاتاً ... وأشار إلى سائق السيارة أن يسير . ولما كانت السيارة تدرج على شاطىء البحر وتنعرج وتتسلق جبالا هى

مجموعة من حدائق و بساتين كان صاحبي ملتزماً الصمت ، وما كنت أعرف أكان صمته ذاك وسيلة لتهدئة نفسي ، أم لعلك ما رميت به قلبه بالموات ولوك هذه القرية .

ما أكثر وجوه الشبه بين فندق « الأيل » ويسمونه باللغة الايطالية « شيرفو » و بين الأديار فى لبنان ! سكان الأديرة قساوسة جرفتهم الأقدار إلى هذا المحيط الضيق ، فأخذوا يمنون أنفسهم بمحيط واسع تتحقق فيه الأمانى وتظهر الغاية الإلهية من الوجود الإنسانى عقب الخلاص من هذا العالم الفانى !

سكان فندق « شيرفو » أكثرهم مرضى ينتجعون العافية فى هذه المصحة ، وشيوخ يأملون فى العودة إلى الحياة ، حياة الشباب من طريق الاستراحة وطيب التغذية ، وفتية صغار يضيق بهم فناء الفندق ، فيسرحون فى الحرج القريب ويمرحون ، وكنت أنا وصديقى الدميم كمريضين أو قسيسين ننتجع العافية أو نمنى النفس بسعادة لا نجدها إلا فى قراءة الكتب وفى شيء آخر محبوب أكثر من الكتب .

قال لى صاحبى ذات مساء وقد عاد من رحلة فى تسلق الصخور : « لقد وجدتها ، لقد وجدتها » . ! ! ؟ ؟

كانت نبرات صوته تدل فى هذه المرة على شعور لم أتبين مثله فى كلامه معى من قبل ، فقلت : مَن وجدت ؟ من هى التى وجدتها ؟

ولما لم يجب على سؤالى ولو بكلمة واحدة ، لم أعر تاء التأنيث اهتماماً لأنى عرفت فيه نفوراً من الأنثى وسمعت حكمه الصارم على كل من

يقترب منها .

تغيب عنى فى تلك الليلة فلم أر له وجهاً فى غرفة المائدة ولا فى قاعة الجلوس . وفى صبيحة اليوم التالى لمحته يهرول صوب وادى « أبولون » يحمل هراوة ليلحق بطائفة من النسوة ولم أرها انحدرت فيه قبل .

من أين أقبلت هذه الزمرة من النساء ؟ ما علاقة صاحبى بهن ؟ من هى التى وجدها ؟ هل هى واحدة منهن ؟ لا أدرى !

الفندق الذى أقيم فيه محدود مساحة وارتفاعاً ، أكاد أعرف نزلاءه بملامحهم ووجوههم واحداً واحداً ، وواحدة واحدة ، من شيوخ وأطفال ، كأن عنصر الكهول والشباب لا وجود له ولا حساب ، فمن أين أقبلت زمرة النساء التى لحق بها صاحبى واندمج فيها حتى صرت لا أرى له وجهاً لا فى الصباح ولا وقت تناول الطعام الظهر أو العشاء ؟ !

نضوت ثوب البلادة ، وطرحت الكتاب جانباً ، وقمت أسعى . هدانى السعى إلى فندق ملحق بفندقنا قائم على مرتفع ليس ببعيد تحجبه غياض الصنوبر عنا ، وتعج فيه الحياة و يصطخب مرح الشباب بأمواج من السرور ، ورأيت صاحبى الدميم تحف به جماعة من فتيان وفتيات يقهقهون . تقدمت قليلا ، وما كدت أدنو منهم حتى أحاطوا بى وأخذوا ينهالون علىّ بأقوال فيها ضحك ومزاح وعدم تورع فى السخرية من شاب مثلى دأبه القعود والقراءة والنوم ، وآفته الكبرى مصاحبه رجل تتمثل فيه الدمامة .

أدركت مبلغ تسامح صاحبى معهم فى المزاح حتى تجرءوا علىّ أنا

الذى لم يرهم قبل هذه اللحظة ، وكالوا لى بذات الكيل الذى رضى هو به .

أنقذت موقفى بتصويب سخرية لاذعة إلى جمال أبرز فتاة ، وإلى رجولة شاب مسكين فى الزمرة ، ولم أتعفف عن صد كل مازح أو مازحة بضحكة المستهزئ .

شعرت بأنى كدت أعكر الجو ، وأجلب حقد النفوس علىّ ، فالتفت إلى رئيس الموسيقى وطلبت إليه أن يعزف رقصة « الفالس » ، واجتذبت فتاة ليست على شىء من الجمال ، وأخذت أراقصها برشاقة وبراعة ... تقلبت خمس راقصات على ذراعى ، ولم تكف الجوقة الموسيقية عن العزف لأنى دغدغت كف رئيسها فصار طوع إشارتى .

صفا الجو الذى عكرته بسلاطتى التى ما كان لى محيص عن التوسل بها لإنقاذ نفسى من المأزق الذى حشرنى فيه صاحبى على غير قصد . ولما فرغنا من الرقص تكونت حولى الراقصات اللاتى أعجبن برقصى ، فأخذت أحدثهن حديثاً طريفاً فى فن الرقص ثم فى الأزياء والعواطف ، وما تركت القاعة وقد كاد الصبح يتنفس حتى أيقنت أن سلطانى مد رواقه على الفتيات والسيدات والشباب النازلين فى ملحق الفندق .

لم أنس أن آخذ صاحبى الدميم معى حين عودتى إلى الفندق . ولما انفردنا قال لى إنه انتقل إلى ملحق الفندق ، فعرف فيه فتاة جذابة أذكت بفتنتها الجذوة الكامنة فى قلبه ، وقد عقد عزمه على الاقتران بها وأنه سيتزوجها لا محالة .

قلت : أفى النساء عليـــلة نظر وحسّ وذوق ترضى بدمامتك وشناعتك ؟

أخرسنى الخبيث بإشارة فضحكت .

أعدت على مسمعه قوله فى المرأة إنها هبة الشيطان ، وسم الأفعى ، وعصا إبليس ؛ وحكمه على الرجل الذى يدنو منها بأنه خفيف العقل ، ممسوس بخبال الغريزة ، فأجاب :

كان حكمى ذاك قبل أن أصعق بفتنتها .

قلت اذهب إلى فراشك لأنك متعب ، وسنتحدث فى النهار فى أمر زواجك .

قال محتجا : لا ! لا أذهب إلى فراشى ولن أذهب إليه ، لا أطيق النوم . وارتمى على كتفى كطفل وقال بصوت باك كبكاء الطفل لقد أحببت « سمسم » بكل جوارحى العطشى ، ما عرفت الراحة منذ عرفت الآنسة « سمسم » ولن يستقر بى قرار حتى أبنى بها .

قلت : أجاد أنت فيما تقول أم هازل ؟

رفع رأسه عن كتفى ونظر إلىّ نظرة استفسار حادة ، فتابعت قولى : كيف تكون جادا وقـد اضطرنى موقف أصحابك من فتيان وفتيات منك ومنى ، وإمعانهم فى الضحك والاستهزاء بك إلى مخـاشنتهم ، وكانت الآنسة « سمسم » هذه إحدى الضاحكات . وهل يشاد بناء الزواج على غير قواعد مكينة من الرصانة والجد ؟

قال : مصيبتى الـكبرى فى وجهى المشوه الذى يثير الضحك ، ثم

ما شأنى فيمن يضحكون مني فأسخر منهم فأهملهم بلحظة واحدة وأنكرهم كأن لا وجود لهم ؟ أما الآنسة « سمسم » فما ضحكت قط منى ولا هزأت بى . كنت أراقبها وأستشف معانى ضحكها ، كنت أحس نظراتها تهز مشاعرى ، وحنوها يظللني كغمامة موسى الكليم ، وأن شفقتها علىّ قد تدفع بى إلى اقتحام الصعاب وتذليلها لأجل إسعادها ، وسأسعدها إذا رضيت بى زوجاً لها ، سترضى وسأتزوجها .

قلت أتعرف حكاية الشاب الفلاح مع ابنة الملك التى أحبها ؟

قال : لا أعرف الملوك والحكايات ، بل أعرف حكاية عرش فى قلبى تستوى عليه مليكتي « سمسم » .

قلت : « سمسم » هذه هل سألت عنها ، هل عرفت أهلها ، هل كاشفتها الحب ، هل عرضت عليها الزواج ، هل رضيت بك بعلا ؟

صرخ فى وجهى صرخة شعرت بحرارتها تغلب دوّيها وقال : هذه أمور أترك لك تذليلها . أما أنا فلست راغب فقط بل أريد حتماً الزواج من « سمسم » وسأرغمها على الرضا بى .

عجباً ! كيف ترغم فتاة على قبول زواج ؟

قال : يالك من أبله ! لقد لمحت شفقتها بى ترتسم فى نظراتها ، والشفقة عنصر قوى من عناصر الرضا والحب .

قلت أوافقك جدلا على استنتاجك ، ولكن هبها ليست على دينك فكيف يكون الحل ؟

قال : من منا لا يقدم الدين الانسانى على نواميس الأديان السماوية

وكلها فى الجوهر واحد ؟

قلت : دستور الدولة والعرف .

قال : أستهين بالعرف وبالشرائع التى تحول دون اتحاد قلبين ، وأدار كتفه وانصرف .

لزمت غرفتى طول النهار التالى ، ولم أذهب إلى ملحق الفندق إلا بعد ثلاث ليال .

لقيني خصوم الليلة الأولى بل أصدقاؤها بترحيب ملحوظ ، جعلنى أحس كأنهم ينتظرون قدومى ، وغدوت أعاتَب إذا تأخرت ليلة عن الحضور .

قيل لى مرة بعد مقدمات وأسئلة عن صاحبى — وقد أطلقوا عليه اسم « ليدرون » تحريفاً لكلمة بالفرنسية معناها « دميم » — بأنه خطب الآنسة « سمسم » من والدتها . وهو يجهل طبعاً أنها حفيدة فلان العظيم ، وقد ذكر اسمه ولقبه ورتبته ، وأن والدتها رددته بلطف ، فلم يأبه لردها وأصر على البقاء بقرب « سمسم » ، وأنه سيعود إلى مصر متى عادت هى إليها ليفاتح جدها وهو ولىّ أمرها بالزواج . وقالت إحدى الآنسات : نحن منقسمون حيال هذه المسألة إلى قسمين : قسم الآنسات يتنبأ بتحقيق هذا الزواج وسيكون زواجاً سعيداً . وقسم الرجال يستبعد وقوعه ، فأنت إلى أى جانب تنحاز ؟

قلت : ماذا كان رد الآنسة « سمسم » على خطبتها ؟

قلن : قالت إنها ستقول كلمتها عند ما تعرض المسألة على ولىّ أمرها .

لم أشأ أن أنحاز إلى جانب المتنبئات المتفائلات لأنهن أقدر من الرجال على استشعار الرجولة ومعرفة ميول المرأة ، ولم أُمل إلى المتشائمين الذين استبعدوا وقوع هذا الزواج بين شخصين يمثلان الشيء وضده ، أى الجمال البادى والدمامة الصارخة ، وقد تحاشيت عمداً إبداء رأى فى صاحبى الذى لم أعرفه إلا يوم وصولى إلى جزيرة « رودس » . وقد أعاننى على هذا التحاشي أن رأيت صاحبى مقبلا مع فتاته « سمسم » وكأن قلبيهما يدفعان خطواتهما باتزان فى حين كان فكراهما يسبحان فى جو سماء واحدة

* * *

كان من عادتى في تلك الجزيرة أن أستيقظ عند الفجر ، أستقبل شروق الشمس عند قمة الجبل أمتع النظر بأبهج وأروع ما رأيت من مفاتن يقظة الشمس . وحدث ذات صباح أنى ما كدت أتخطى عتبة حجرتى حتى تقدم أحد غلمان الفندق فألقى إلىّ كتابا من السيدة والدة الآنسة « سمسم » تدعونى إلى مقابلتها عند ربوة « النبي إيليا » ، وهى ربوة ليست بعيدة عن الفندق تكتنفها أشجار الصنوبر وتحجب الجالسين فيها عن الأنظار .

سيدة مهيبة الطلعة ، يبرز وجهها الذى لا يزال يحفظ نضارته ولونه كضوء القمر ، من بين هالتين من شعر أسود فاحم وثوب أسود يستر أكثر أجزاء الجسم . هذه السيدة والدة « سمسم » هى التي دعتنى للكلام معها فى حادث صديقى .

شرحت لتلك السيدة المحترمة العاقلة مبلغ معرفتى بصاحبى الدكتور ،

واعترفت لها بأن لا سلطان لى عليه إلا حق دعوته إلى الاصطبار والتريّث ريثما ينقضى فصل الصيف ونعود إلى مصر .

قالت : أخشى أخباراً تتسرب إلى مصر تنقل محرفة ، فيتقول الأشرار عن الأسرة ما لا ترضاه . ودهتنى بإلحاح إلى معاونتها فى إقصاء صاحبى عن ابنتها التى شهدت بطيبة قلبه وكريم شمائله ، كما ستعمل هى من جانبها على ردع ابنتها بالحسنى عن التمادى فى صداقة رجل لم يعرفوه بعد.

لم يكن فى وسعى أن أستجيب لطلب السيدة ، وقد أدركت من كلامها أنها وإن كانت غير راضية عن صلة ابنها بالرجل فهى غير غاضبة عليها . وقد صارحتها بأنى لا أطيق أن أباعد بين قلبين يتدانيان ، ولا أعمل مطلقاً على نصب حواجز بينهما . وقد شعرت عندما فارقتها بأنها مقدرة موقفى وتصرفى .

مدت يدها لوداعى ، فقبّلت تلك اليد ووددت لو ألصق شفتى بظهر كفها طويلا لأبلغها مدى احترامى لها وإكبارى إياها .

السيدة جميلة تستر جمالها بالحزن ، وقد حدثتنى عن ابنتها الوحيدة بلسانين من العاطفة الحنون والعقل الراجح . إنما هى محزونة مفجوعة ، لا بزهرة من زهرات الحب ، بل ببباذر بذور الحب ، بزوجها وهى الوفية لعهده بعد الموت . هى أم ترضى لابنتها زوجاً له بعض مزايا المرحوم زوجها فى الانكباب على قراءة الكتب .

* * *

لم يعد صاحبى فى حاجة إلىّ ولا إلى كتبه ؛ فقد تركها لى هدية

المستغنى ، ولم يكن ظرفى الخاص يبيح لى أن أندمج بنزلاء ملحق الفندق وجلهم أعزب دأبه التصابى والتهازل .

ما أكثر ما يلاقى يا صاحبى ، من العسر شاب أُلجم بالزواج فى سن مبكرة قبل أن يتفتق ذهنه للحياة ! وما أشد هزال الحياة فى نظره إذا داهمته بالبنين قبل أن يشتد ساعده للكفاح ! وما أثقل قيود العرف وأغلال العادة على قلبه إذا ألزم نفسه التقيد بها والخضوع لها ! هكذا كان حالى بين نزلاء الفندق .

أصخت لنداء الواجب يهيب بى أن أعود إلى زوجتى وأولادى ، فلبيت . جمعت حوائجى فى حقائبى ، وركبت سيارة أوصلتنى إلى ميناء الجزيرة ومنه ركبت البحر إلى الأسكندرية .

صمتّ هنيهة ريثما أستريح وأشعلت لفافة تحرّض الذهن على الصفاء والاستذكار ، وإذا بالمضيف إلى حكايتى يسألنى بلسان الرجل الخبيث ولهجة المستحث : « ثم ماذا » ؟

ابتسمت لسؤاله ابتسامة خفيت عليه معانيها وقلت : انصرمت أعوام ثلاثة لم أر صاحبى الدميم فى خلالها ، ولم أسمع إلا خبراً واحداً نشرته الصحف ، خبر استقالته من الجامعة وانصرافه إلى أعماله الزراعية . لقد أكبرت هذه التضحية من دكتور يدرّس في الجامعة فى سبيل الاستقلال والحرية ، فان كثيراً من الناس يؤثرون عبودية الوظيفة وقيود النفس على الحرية .

* * *

حدث فى أمسية أحد الأيام ، وأذكر جيداً أنه كان اليوم الثانى

والعشرين من شهر ديسمبر ، أن لقيت مصادفة رجلا يشبه صاحبي الدميم فى متجر شـيكوريل ، ولـكنه لم يكن دميما ، ولا أمرط الحاجبين ، ولا أعمش أحمر الجفون ، غير أن ندوب الجدرى وأثر الجراح فى عنقه كانت لا تزال باقية كما عرفتها .

زالت حيرتى بإقبال الرجل علىّ يحيينى بمـودة واشتياق ، وقال مداعباً : لم يعد منظرى يفزعك لأنى أتقنت « التواليت » أليس كذلك ؟

قلت : من الفنان البارع الذى جعل من « الفسيخ شربات » ؟

قال : هى .

— هى من ؟

— تلك التى وجدتها فى رودس .

— أتعنى « سمسم » ؟

— هى بعينها

— هل عند « سمسم » صالون « مكياج » ؟

ضحك صاحبى وقال : لا داعى الآن إلى إطالة الـكلام ، سنطلعك الليلة على كل شىء .

قلت : نون المتكلمين من تعنى ؟

قال : دع التشوف وحب الاستطلاع ؛ ففى هذه الليلة تعرف كل شىء تهمّك معرفته ويسرّك خبره . أما الآن فأنت أسيرى وان يطلق سراحك إلا بعد أن ينتصف الليل ! أفهمت ؟ أنت أسيرى فلا داعى إلى السؤال ولا إلى الجدل أو الاحتجاج .

وقفت كالمبهوت ريثما ابتاع صاحبى حاجته من المتجر ، وتزايدت دهشتى حين دعانى إلى ركوب سيارته ، ولقد ألفيتها تشغل نصف شارع فؤاد الأول عرضاً ، وقد درجت بنا إلى بيته وهو « ڤيلا » جميلة فى الجزيرة تحف بها حديقة باسقة الأشجار . أما الدهشة الكبرى فهى تلك التى اعترتنى حين مقابلتى « سمسم » وجهاً لوجه واندفاعها نحوى تحيينى بلهفة ومحبة كما لو كنت أخاها .

لم تعد « سمسم » تلك الفتاة النحيفة الضامرة التى عرفتها فى فندق « شيفرو » تقفز بين أشجار الصنوبر كالغزال ، بل اكتمل جسمها واعتدل قدها ، وبرزت أنوثتها كأحلى ما تكون فى المرأة .

قالت وقد أخذت يدى بيدها : تعال أرك منزلنا وقد تعاونت أنا وزوجى على تنسيق أثاثه وترتيبه ، ثم أحدثك كيف تمّ زواجنا .

مشيت معها أتفرج على حجرات « الڤيلا » المنسق فرشها ببراعة وذوق فنى ، ووقفنا طويلا فى غرفة المكتبة وهى عامرة بآلاف الكتب ، فقالت :

هذه الخزائن (الدواليب) خاصة بكتب الزراعة فلا أدنو منها لأنه لا شأن لى بها ، وهذه الرفوف للكتب التى أشترك مع زوجي فى مطالعتها . وكثيراً ما نجلس فى حديقتنا ، كما كنت أنت تجلس معه فى رودس ... تقرآن ، وكنت أنا والبنات أترابى نراقبكم من بعيد فنضحك من اجتماع ... النقيضين .

قلت : أى نقيض بين زوجك و بينى ؟

قالت : إهمال مطلق من ناحية زوجى فى هندامه و بزّته ، وإصلاح رأسه ووجهه ، يقابل عناية تامة من ناحيتك فى كامل مظاهرك .

فتح الباب فى هذه اللحظة ودخل منه زوجها يحمل رأسه الأصلع وحاجبيه الأمرطين اللذين قل الشعر فيهما ، ويلبس سروالا قصيراً وقد برزت ساقاه الشعراوان ، وينتعل حذاء سميك النعل ، وفى يده عصاً كأنها جذع شجرة وقال : « هكذا كنت » .

قلت للسيدة « سمسم » وأنا كالفزع : كيف تخلصت من هذه الدمامة الصارخة ؟

قالت وهى تبتسم : علمته صناعة « التواليت » . ثم التفتت إلى زوجها الذى كان يقفز كالقرد ويأتى بإشارات مضحكة وحركات طفلية وقالت له :

أتقنت تمثيل دورك كما كنت فى رودس ، فاذهب وغيّر هندامك استعداداً للعشاء .

قال محتجا : لا عشاء قبل « الأبرتيف » .

قالت : هو ذاك مقبّلات شهية .

عدنا إلى الصالة وكانت الدهشة مازالت تغشانى . فلما جلسنا قالت لى السيدة « سمسم » : لقد تم زواجنا على خير ما رمت . اقتنعت والدتى برضاى عن الرجل الذى انفتحت له مغاليق قلبى فقبله شريكا لحياتى ، ثم أظهرت مثل هذا الرضا المرحوم جدى الذى كان ولى أمرى ، ولم يعترض إلا على مسألة واحدة حلّ عقدتها زوجى العزيز بالانتساب إلى دينى . وأصارحك بأنى ما كنت لآبه لمثل هذا الأمر أو أعيره التفاتى

لولا أحكام الشريعة ، أحكام الدين المنزل من عند الله ، ولم نراع دين الحب الذى هو الله .

صمتت هنيهة ثم قالت : أحس فى أعماق قلبي أن الأديان كلها تستمد قوتها من روحانية الإنسانية ، فلم لا نكون كلنا إنسانيين فى الزواج وهو روحانى فى الأصل ثم غريزى فاجتماعى ؟ !

ثم قالت : اتفقت أنا وزوجى على أن ندع ولدنا على طبيعته يختار سبيلا يوائم عقله و يتفق مع روحانيته ، وقد آلينا على أنفسنا أن نرعاه كانسان . وهكذا نكون قد نفضنا أيدينا من المشكلة الاجتماعية التى سوف تحل عقدها الأجيال المستنيرة المقبلة بعد أن بذرنا بذورها ؟ !

أقبل الزوج لابساً حلّة « سموكنج » ، فقامت السيدة ولم يطل غيابها ، وقد عادت بعد أن نضت ثياب البيت واستبدلت بها ثياب السهرة وقد برزت هى وزوجها كالانجليز الاستقراطيين . و إذ كنا فى طريقنا إلى غرفة المائدة قال لى زوجها مداعبا : انظر كيف تمثل أنت الدمامة الآن بهندامك كما كنت أنا أمثلها بوجهى ورأسى حينما تعارفنا فى رودس !

كان حديثنا ونحن على مائدة الطعام يدور حول الدمامة والحسن وقد اختلفت كما تنوعت وجهات نظرنا فى تعريفها ، وقد كانت السيدة « سمسم » أقدر منا وأصدق فى الحكم عليها من وجهة نظر المرأة ، فقالت :

الدمامة هى فى الوجه الميت ، والحسن فى الوجه الحى . فالوجه الذى تموت فيه التعابير وتنطفئ فيه معانى النفس هو وجه دميم برغم تناسب قسماته ؛ أما الوجه المعبر الذى تبرز فيه كل المعانى النفسانية فهو الوجه

الحسن برغم التنافر فى قسماته .

أما الجمال ، وإن كان تعريفه نسبيا ، واختلاف النظر إليه واجب بوجوب تنوع الأذواق والميول ، فهو فى نظر المرأة رجولة فى القسمات ، رجولة فى الصوت والحركة والإشارة ، رجولة فى البت فى الأمور وفى تصريفها . ولا شأن لى فى وجهة نظر الرجل فى تعريف جمال المرأة ؛ لأن أكثر الرجال لا يعرفون ما هو الجمال ! والجمال فى المرأة سر بل أسرار لا يعرفها حقا إلا الخبثاء من الأدباء والشعراء ورجال الفن .

ضحكت أنا وصديقى ضحكة الرضا عن تفسير هذه السيدة معانى الجمال على هذا الشكل البارع ، وأخذنا نشرب ونأكل . وإذ كنت فى طريقى إلى البيت كنت أحس بأنى سكران أترنح من الفرح . وما برحت يا صاحبى أزور هذه الأسرة السعيدة لأفرح بمشاركتها فى عيدها فى الليلة الثانية والعشرين من شهر ديسمبر من كل عام .

* * *

نظر إلىّ صاحبى نظرة طويلة ساهمة ، ثم مد يده فصافحنى وانصرف دون أن يقول كلمة واحدة . وبعد ليلة جاءنى هذا الشاب وكل قسماته تطلب الاستفهام والاستيضاح ، وقبل أن يسلم علىّ قال :

أستاذى المحترم ، أين عقدة القصة وكيف حللتها ؟ لقد أذهلتنى عن العقدة فبربك أرشدنى إليها .

قلت وقد تعملت جفوة المتشرد ، اذهب إلى الدميم ، بل اذهب وسل « سمسم » إذا شئت .

بكارة

هوزني

أقسم لك يا سيدتى أن زوجتى قد أخذها المخاض وأصبحت فى حالة تستوجب حضورك ... وسمعتها تقول بصوت عال كاد يقرع أذنى فنحيت سماعة التليفون : « قلت لك لا تدعونى إلا متى صارت المدة بين الطلقة والطلقة عشرين دقيقة على الأقل ، أفهمت ياحضرة ... ؟ عشرين دقيقة ! »

حسن يا سيدتى فتحية سأكلمك . . . وإذا بها تصرخ وتقول « أنا الدكتورة فتحية لا السيدة فتحية » ولوت شدقها فخرج الصوت معوجا مائعاً متطرّماً كأنه صوت عجوز هتماء تأكلت أسنانها ولم يبق سوى جذورها النخرة .

أدرت قرص التليفون مرات أستحث السيدة الدكتورة على الحضور ، وأضرع إليها أن تسرع لأن الطلقات صارت متقاربة لايفصل بين إحداها والأخرى سوى دقائق معدودات ، وإنى أخشى العاقبة وعقابيل الطوارئ المفاجئة ، خصوصا أن ليس فى البيت سوى حماتى ، وهى عجوز إن كانت ولدت مرات فهى بطبيعة الحال لا تحسن التوليد .

وأخيراً حضرت الدكتورة المولدة ، وما كادت تجاوز مدخل البيت حتى سألتنى عن الخادم ، فقلت لها إنى صرفته فى المساء ولن يعود إلا فى بكرة الغد .

قالت بحنق وقد فاحت منها رائحة شراب اختمر فى جوفها وطغى على

رائحة القرنفل التى كانت تمتصه للتستر : أتريد مني أن أترك سيارتى نهباً للصوص الدواليب (العجلات) تلقاء عشرة جنيهات أقبضها أجراً للولادة ؟ لا يا سيدى يفتح الله ! وهمّت أن تعود ولكنها التفتت إلىّ تقول : مُرْ بواب العمارة يحرس سيارتى وأنت المسئول عنها أو عن أطرها إذا سرقت .

ناديت البواب ونبهته إلى مراقبة السيارة وعدت على عجل ، وإذا بى أرى السيدة الدكتورة خارجة من غرفة زوجتى تقذفنا بأشنع الشتائم ، وتعجب من جهل أناس مثلنا يدل مظهرنا على أننا متعلمون فى حين أننا من أجهل الأميين ، وقد هزت ساعدها فى وجهى وقالت : زوجتك يا هذا المخلوق ستلد بعد شهر أفهمت ؟ ! زوجتك ستلد بعد شهر يا ... ! وخرجت ورأيتها تهبط الدرج كأنها أرنب تقفز ، ولم تشأ أن تسمع منى كلمة واحدة ولا أن تفهم أن « كيس الماء » قد انفجر ، وأن الولادة واقعة بعد هنيهة أو أكثر قليلا ، ولكن الحمقاء قد ذهبت وسمعت بأذنىّ هدير محرّك سيارتها .

ساورتني مخاوف شديدة ... كادت الصور البشعة التي تراءت لى وتراقصت أمام عينى تزلزل عزيمتى وتوهى قواى . ولكن رؤيتى زوجتى المسكينة منطرحة على الفراش ، منهوكة القوى ، تعلو شفتيها زرقة قاتمة ، شحذت المدخر من قواى ، فهرعت إلى دليل التليفون أستنجد بأى طبيب مولد .

يسر الله ؟ ؟ ! ! وثبت إلى ذهنى كل ذكريات الصبا وحوادث

طلب العلم بكلية الطب فى باريس حيث كان « يسر الله » هذا يطلب الطب فيها وينكب على هـذا العلم انكبابا لفت إليه رجال التعليم فى الكلية واسترعى انتباه مراقب البعثات ، وأثار غيرتنا نحن الطلاب من تفوقه علينا ومن انصرافه عن ملاذ الدنيا ومرح الشباب فى باريس . تذكرت فى هذه اللحظة الخاطفة عشرات من أولئك الذكريات الحلوة ، ثم استفقت بغتة ، وأخذت أدير قرص التليفون بثبات وطمأنينة .

الدكتور « يسر الله » هو الذى كلمنى ياللفأل الحسن ، ياللايمان الدفين وقد انتعش بسماع كلمة « يسر الله » . شرحت للدكتور يسر الله موقف زوجتى بأوجز عبارة وأوضح بيان ، وختمت حديثى بما كان لا بد أن يكون . فاتحته بقولى أنا فلان رفيقك أيام طلب العلم ، وسمعته يقول بلهجة رصينة آمرة : ضع إناء كبيراً فوق النار وانتظرنى بعد قليل .

أحسست كأن رمقا يزيد على رمق حياتى . . . ذهبت توّا إلى المطبخ أوقد النار تحت القدر ، ثم إلى زوجتي أغلّب فيها عنصر الشجاعة والشباب على عنصر التخاذل والاستسلام وقد عقد فوقها سحابة من الركود المنذر بما يليه .

هزت رأسها هزة اليائس عند ما قلت لها إن الطبيب قادم بعد دقائق وزمّت شفتيها كفاقد الرجاء ، وفتحت عينيها محاولة أن تقول لى كلمة ولكنها لم تستطع .

يا لله من هول ما تراءى لى من صور مفزعة مرعبة ، ومن خواطر قاتمة مخيفة ! ! ولكن الأمل والرجاء والايمان وكل ما هو موروث عن

العقائد والتعاليم الدينيـة قد أهابت بى أن ألوذ بالعناية الصمدانية فهى رحيمة رءوف بزهرة شباب زوجتى أن تذبل قبل الأوان ، عليمة بذات أسرار قلبى الذى ما خفق منـذ خفقته الواعية إلا للحب . وهل الله إلا محبـة ؟ وأخذت وجهى بين كفىّ وطفقت أبكى بكاء الآمل لا بكاء اليائس .

هرعت إلى الباب أفتحه للطبيب القادم ، هو صديقى بعينه ، لقد طوّحت به عشرات السنين ولـكنها عجزت عن إقصائه عن حلبة الشباب وخميلة الصبا ، قال ولم يسلم : « ضع ما فى داخل هذه العلبة فى الماء المغلى ودلنى على غرفة الوالدة .

مشيت أهـديه الغرفة حيث كانت زوجتى منـكبة فى سريرها كالمهمومة أو النائمة . أخـذ الطبيب ذقنها بأطراف أصابعه فانبسطت صفحة خدها ، فصفعها صفعة أجفلتها ، فلم يلتفت إليها بل انـكفأ على منضدة كانت إلى جانب السرير يفتش عن دواء كنت هيأته وفق طلب الدكتورة القابلة .

سألنى عن الوقت فقلت إنها الخامسة صباحا ، فقال : فى الساعة السادسة يكون كل شىء قد تم ، وسأجلس معك ساعة على مائدة الإفطار ، وأولج إبرة فى ساق زوجتى وحقنها ثم غرز حقنة ثانيـة فى الساق الثانية ، والتفت إلى حماتى يسألها أن تبقى إلى جانبه ونظر إلىّ ... أدركت مبتغاه فخرجت من الغرفة فوقفت عند بابها كالصبى الحردان .

استيقظت أوجاع زوجتى وعلا صراخها ، اشـتد جأرها وأخذت

تخور . سمعت الطبيب ينصحها بأن تعطى نفسها مطاق مداها وقوتها فى الصراخ والعصر . ضقت أنا الواقف خلف الباب الموصد بآلام موضوعية ذاتية ليس فى الإمكان احتمالهـا أو دفعها . طفقت أمشى فى باحة البيت كالمهووس حيرة واضطرابا ... أفّ لهذه الساعة المثبتة فى الحائط تتكتك برتابة ووزن . علقت بصرى بها وبودى لو أجثو إليها ضارعا أستحث خطاها ؛ لأن البائسة اللعينة بطيئة لم تقطع بعـدُ نصف المرحلة التى قدرها الطبيب .

يا للهول من سماع صراخ المرأة تتوجع ! صرت أذهب وأجىء فى الدار كالتائه . ياللأولياء والقديسين إنى أستجير بكم ! أقدم النذور شمعاً وبخوراً ، سأحسن إلى الفقراء ، سأقرض الله مالاً تلقاء نجاة زوجتى .

انبعث من الغرفة صوت كأنه ينزع عن جسد وروح جسـداً وروحاً آخرين ، وتلته حركة أقدام تتنقل ، وسمعت صوت بكاء رقيق ناعم من حنجرة ضيقة ، فأيقنت أن المولود أنثى . قلت وكأن سحابة تمطر رذاذاً قد غسلت فى لحظة نصف أتعابى واضطرابى : ليتنى أوصوص من خلال ثقب مفتاح الباب فأرى زوجتى وقد همـد صوتها فتطمئن نفسى فأغسل بقية أتعاب الزوج يوم ولادة زوجته !

جلست الى المائدة قبالة صديقى الدكتور « يسر الله » نتناول طعام الإفطار بشهية الجائع ولذة المتعب . كنت أتوقع أن يبدأ صديقى الدكتور الحديث عن ذكريات أيام الطلب فى باريس ، أو عن حملة صادقة قاسية يشنها على القابلات الملعونات المستهترات اللواتى لا يقدرن مسئولية القبالة

ويستهنّ بأرواح الوالدات ، ولـكنه رفع رأسه قليلا وقال : « لقد أُعجبت بساق زوجتك فانهما جميلتان حقا ، وإنى متى عدت إلى البيت سأكشف عن ساق زوجتى لأرى هل هما متناسقتان بضتان أيضاً » .

لم أتمـالك أن قهقهت لهـذه المفارقة الغريبة والملاحظة الساذجة من طبيب إخصائى فى الولادة دأبه كشف مايستوجب الستر مما لا يراه سواه . ولـكنى فطنت إلى ما أنتظره من غرائب الحديث من رجل أعرف فيه الشذوذ والانحراف عن كل ما هو مألوف من السلوك الطبيعى ، وتذكرت أنى كنت أقيم معه فى غرفتين متجاورتين ، وأنه ما انفك يوما عن تقريعى لغرقى ، على حدّ زعمه ، فى بحور التاريخ الأدبى أقلب أحداث القرون وتطوراتها واحداً بعد واحد ، وأدرس نفسية كل كاتب برز فيه وعبقرى سطع فى سمائه ، أستخلص منها ما لا تقوم له قائمة على قاعـدة وطيـدة ، ولا يقاس ولا يوزن إلا بميزان ومقياس من ذوق فردى وإحساس ذاتى ، وشعور خاص . وكان يقول لى : أنت من أولئك المجانين الذين إذا مددت أحـدهم على مشرحتى حين أنال شهادة الطب وجدت فيه انحرافا طبيعيا لا شأن للطب فى معالجته ، وسيكون مأواك ومأوى زملائك وأقرانك الأدباء ، لا المستشفيات والمصحات ، بل البيمارستانات تحجزون فيها حتى لا تشوشوا على المجتمع بقصائدكم وقصصكم وفلسفتـكم أيضاً مدعين أنها فنون الحياة والحب والجمال ! وكنت بدورى أقيم له الدليل تلو الدليل على أنه هو المعرور الملتاث .

وتذكرت أنى كنت ذات مرة متفقاً معه على قضاء سهرة راقصـة

وعند ما أزف الوقت قال إنه ذاهب إلى الحلاق ، وقد عاد حليق الرأس كأنه جندى ألمانى فى الأسر ، وهكذا تخلص من السهرة .

تذكرت هـذا وقلت : أليس الإضراب عن الزواج والتبشير بالعزوبة والنفور من المرأة ، دليلا قاطعاً على هذا الشذوذ ؟ ؟ وسألت هل تزوجت حقا يا دكتور ... وممن ... وكيف تم ذلك ؟ ؟

ضحك ضحكة عالية وقال : ها أنت ذا المجنون الأديب بقدّه ولفظه وتعبيراته التى عرفتها . وصوّب إصبعه إلى وجهى يؤكد أنى أنا المقصود بما يقول ، كأنما في الغرفة سواى يخشى أن يحمل عليه القول .

أحضر الخادم القهوة فأخذنا نحتسيها . ثم أشعل الدكتور سيجاراً « تشرشليا » من تبغ هافانا ، واستراح فى مقعده وقال : اذهب فجرّع زوجتك جرعة كبيرة من الكونياك ، ثم تعال أقصّ عليك قصة حياتى . ولما عدت قال :

نلت إجازة الطب ثم أخصيت فى فنّ الولادة ؛ أتدرى لماذا ؟

قلت : لا طبعاً .

قال : كان تخصصى فى هذا الفرع القذر انتقاماً لى من كل امرأة !

قلت : لا أفهم كيف يكون فن الولادة وسيلة للانتقام من المرأة !

قال وهو يتململ : رويدك ريثما أبسط لك الأمر ، وأردف : صحيح أنى عفت المرأة وكرهتها ، ولكنى كنت دائما ذلك الطبيب الأمين الذى لم ينقطع عن تحصيل أحدث العلوم واتباع أبرع النظريات فى فن الولادة أطبقها على مرضاى ، وقد جعلت مستشفاى نموذجاً كاملاً للنظام

والنظافة ؛ لأنى أعتقد أن النظافة هى العنصر الأول فى وقاية النفساء وسلامة جنينها . والنظافة التى نراها فى المرأة والتى بها تبرز مزهوة متكبرة ، توازى من الناحية الأخرى قذارتها التى أعرفها أكثر من غيرى من الرجال . وهذه القذارة التى لا حيلة لها بها ، هى التى زهدتنى فيها وباعدتنى عنها ، وهى أيضاً بعينها جعلتنى أغضى عن الجوانب الأخرى الجميلة والمستحبة فيها ، فصرت لا أنظر إلا لهذه الناحية التى تتقزز لها النفس .

قلت مقاطعاً إياه : لماذا سكتّ عن عنصر الانتقام وقد جعلته رئيسيا فى مستهل كلامك ؟

فأجاب : يا لك من أديب شبيه بإبليس الرجيم ! أنت تعلم أن للشباب موجات جارفات ، وأن النادر فى الشباب من ثبت لتلك الموجات أو انحرف عنها . وتعلم أيضاً أن للجاذبية قوتها ، وللكلام سحره ، وللرقة والدعابة والتلطف أثرها فى خصال الرجل وفى نفسه أيضاً ، أما أنا والحمد لله الذى لا يحمد على المكاره سواه ، فإنى مجرد من هذه الخصائص ومتحل بالجلافة والخشونة التى لا تجتذب سوى المرأة الساديّة المكروهة ، فلا عبرة إذاً بزهو المرأة علىّ ، كما لا غرابة فى حملتى عليها أدغدغ شعورى بالانتقام منها .

قلت : إن الحب إذن هو الدافع بك إلى الانتقام !

سكت ... ولكن سرعان ما حدجنى بنظرة وقال : هل كل أديب ثرثار مثلك أو مستخفّ ، لا يأتى بالكلام على وجهه الصحيح ؟

لقد سألتنى : هل تزوجت ، ثم ألحقت بسؤالك ثلاثة أسئلة أخرى ، فدعنى أجب عليها .

أجل ! لقد تزوجت ورزقت منذ أيام مولوداً ذكراً لم أتبين قسماته بعد ؛ لأنها ما برحت تذكّر بملامح الحيوان الذى تحدر منه ، وستنكشف هذه الملامح من كل مولود بعد أسبوع أو شهر أو أكثر قليلا وفق أصالتها . وقد حرصت يا صديقى ألا أولّد زوجتى ؛ لأنى هجرت المهنة منذ تزوجت ، ولأنى لا أريد أن أحتفظ فى ذهنى بتلك الصور الفاضحة التى أعرفها فى كل النساء ، وحتى لا تنكشف لى زوجتى عن كل ما هو مستور ليبقى لخيالى المجال الرحب فى تصويره وفق رغبات النفس فى تمثيل الجمال ودوافع الغريزة فى بعث أشباح اللذة .

هممت أن أقول له : إن كلامه هذا هو من صميم الأدب ، ولكنه أسكتنى باشارة واستطرد يقول :

كنت جالساً ذات يوم على الرمل عند شاطىء البحر فى الإسكندرية ، أسرّح بصرى فى بساطه الممدود المصبوغ بالألوان المتناسقة والمرقش بالأمواج متدفقة صاخبة أو رهوة لينة ، أملأ رئتى من نسيمه العطر الندى ، لا ألتفت إلى نسوة عاريات يكدن أن يكن شبيهات بسيدات يدخلن غرفة الولادة فى المستشفى عندى لولا أنهن خماص البطون ، ولأنى أستنكر هذا العرى الذى يطفىء الرغبة ولا يشعلها إلا فى الوهلة الأولى . كم من الساعات كنت أقضيها فى صباح كل يوم على الرمل تظلنى مظلة ابتعتها لهذا الغرض ، لا أتطلع إلا إلى البحر الذى كان يجذبنى

إليه فأستسلم راضياً لهذا الانجذاب المستحب .

قد يدهشك أن تعلم أنى ما قرأت صحيفة أخبارية ولا قصة عنوانها « سوء فهم » مؤلفها شاعر ممرور كان أهداها إلىّ أحد الأصدقاء الخبثاء ، ولا فتحت كتابا فى العلم أو فى الفن ، ولا التفت يمنة أو يسرة أتعرف على جيرانى فى ذلك الشاطىء الذى يحج الناس إليه من كل أرجاء مصر ، ولم أفكر فى أن يرمينى أحد أولئك الجيران بالذهول أو بما هو أشد منه ، لأن البحر كان فى حقيقة الأمر يذهلنى عما حولى ويطربنى بسحر أنغامه التى لا تملّ ، ويقصينى بعيداً عن رياء الناس ونفاقهم فى عشرتهم .

حدث أن سمعت لغطاً من سيدات يشتمن شباناً مفضوحين ، فالتفتّ فإذا بى أرى سيدة شقراء لا هى فى سن الشباب الوثاب ولا هى قريبة من سن الكهولة المتحرقة ، جالسة تحت مظلتها قريباً منى . لقد تطلعنى شعرها السبط الأشقر ثم ثيابها تغطى كامل جسمها ، فكأن ذاك التستر والمبالغة فى التحفظ ونبذ زىّ العصر الحديث قد أضاءت فجاءة ما أظلم من جوانب نفسى ، وأيقظت المتبلد فيها من إحساس ، وجلت المتأكسد من عاطفة . أو قل إن فكرة ولوغى بحكم مهنتى القذرة وتقزز نفسى منها قد استحالت فى لحظة واحدة إرادة حازمة وشرعا طبيعيا . أما الإرادة فكانت فى طلب الحياة ، وأما الشرع الطبيعى فهو فى مجاراة ناموس الحياة فى إتمام غايتها من الوجود . وقد قررت أن أتزوج من تلك السيدة ثيباً كانت أو بكراً ، وأن أهمل مهنة الولادة تخلصاً من عقدة الانتقام من كل امرأة .

بدت إشارة منى تفيد التعجب ، فأدركها وقال : اصبر حتى أفضى إليك بكل شيء .

قلت مهلاً ! فإنى أعرف أن الشذوذ ضرب من الجنون ، وأن فى الجنون شيئاً من الحكمة . فما هى حكمتك فى قلب أوضاعك وقد ناهزت الستين ؟

قال : اصمت أيها المهذار ، وتعلم منى أن فى الحب لا فى الشذوذ جنونا وحكمة . أما حبي الفجائى فقد تولَّد من الجنون ، وأما جنونى فقد صيّرنى من أحكم العقلاء فى تدبير أمرى على رغم تجاوزي الستين .

وصمت هنيهة ثم قال :

حييت السيدة باحترام وعرّفتها من أنا ، وأطلعتها بإيجاز على غرضى ، وسألتها : أثمة أسباب مانعة ؟ فصمتت وقد خفضت رأسها وأخذت تنكت الرمل وتخط خطوطاً بحركة آلية ، ثم أجابت بصوت ليّن خفيض : أترضى يا دكتور أن تتزوج من مطلقة ؟

قلت — لم يحرم الشرع الزواج من المطلقات .

قالت — أتقبل أيضاً سيدة تجاوزت الثلاثين من عمرها ؟ فابتسمت وقلت : يحسن أن تعلمي أنى أناهز ضعف سنك . واقتربت منها وأنا أقول كأنى أهمس : لقد رأيتك الآن وأحببتك ، فابتسم قلبى للحياة وتوكلت على مشيئتك فى الرفض أو القبول : إن أردتِ تقدمت وإلا فإنى أعود من حيث أتيت أطوى البقية الباقية من العمر على العزوبة حتى النهاية .

قالت — ألم يتزوج سيدى الدكتور قط ؟

قلت — ما تزوجت قط ، ولن أتزوج مطلقا إذا رفضت طلبى .

قالت — مالك لا تقترب من مظلتى ؟

جلست إلى جانبها ، ولم نبرح مكاننا حتى كنا مهّدنا كل سبل الزواج إلا سبيلا واحداً هو موافقة والدها الموظف المتقاعد .

* * *

عينان ضيقتان ، ووجه مستدير ، و بشرة بيضاء زاهرة ، وشاربان أبيضان كثيفان يستران قسما واسعاً من وجه الرجل التركى الذى مدّ لى كفه المصافحة و كأنه يعطينيها لأقبلها .

أوضحت له غرضى من البناء بابنته التى كانت مهدت الطريق لهذا الأمر ، فقال وقد بسط قطوباً فى حاجبيه : يكفى قبول ابنتى إياك زوجاً ورضاك أنت بأن تكون سيدها لأبارك زواجكما .

قلت — سلها إذا شئت .

فأجاب قائلا : لا تكن فى سرعة الشباب وابتسم ، واستطرد بلهجة تركية ولازمات فى التعبير عرفناها فى هذا العنصر الحاكم منذ أخذنا نقلدهم ساخرين ، مفادها أن دواليب (عجلات) عربة الكهول أسرع فى دورانها لثباتها ، وأضمن من وثبات الشباب وقفزهم وتعرضهم للانزلاق ... وبعد دقائق رفعت الكلفة من بيننا وصرنا نتحدث كصديقين ربطتهما أواصر الإخلاص . ولما هممت بالانصراف دعانى إلى العشاء فى اليوم التالى على مائدة ستضم ثلاثة أشخاص فقط .

التففنا حول مائدة وضع الخدم فوقها صحاف الطعام ، وتركونا نتحدث

فى موضوعنا الناضج . كدت أقترح استدعاء المأذون فأدركت الفتاة غرضى وابتسمت ، أما والدها ، وقد عرف فىّ حب سرعة البتّ فى الأمور ، فقد قطّب حاجبيه وقال :

أتعرف يا دكتور أن ابنتى مطلقة ؟

قلت يهمنى أن أعرف هل انقضت عدتها .

قال — هذا أمر فرغنا منه منذ بعيد .

قلت — ما الذى بقى إذن ؟

قال — أرجو أن تنصت لأقص عليك قصة هى هامش على الموضوع كما هى متن له .

قلت — هات ، فربّ هوامش تكون أكثر توضيحاً وأقوى بنياناً من المتون .

قال — « كنت مديراً فى إحدى مديريات الصعيد ، جاءنى ذات يوم وجيه من وجهاء البلد وافر الغنى ، عريض الجاه ، حميد السيرة ، لم تعرف دوائر الحكومة عنه ما تعرفه عن أكثر الوجهاء والأعيان والعمد فى الريف المصرى ، ولم يعرف عن أسرته أنها نامت على ضغينة أو حقد أو طولبت بثأر . هذا الرجل جاء يخطب ابنتى وحيدتى لتكون زوجة لولده وقد عاد من أوربا يحمل شهادة علمية قلّ أن فاز بمثلها طالب من مصر . استمهلته ريثما أبحث الأمر . ولم أتردد فى البت فيه حينما استشففت من حديثى مع ابنتى ما يدل على معرفتها هذا الشاب العائد من أوربا بثقافة عالية وأخلاق مهذبة كما نقل لها صديقاتها الفتيات عنه . ولابنتي

هذه مكان الصدارة فى فؤادى ، فكم سرحت فيه وهى ما برحت تمرح فى رحابه برغم تقدمها فى سن الشباب ، لأنها تملكته منذ انتقلت أمها إلى دار البقاء ، وسيبقى لها بتمامه ما حييت .

قلت لك : إنى لم أتردد فى البت فى موضوع زواج ابنتى من ابن ذلك الوجيه ، ولكنى فى الحقيقه ترددت كثيراً ، لا عن تعالٍ من الحاكم على المحكوم ، أو عن تعصب أو عنصرية أو فرية يفتريها التركى المتعجرف على المصرى الفلاح أو العكس ، إنما قدرت فوارق العادات ، واعتبارات التقاليد التى لا يمكن أن تمحى فى جيل واحد أو أن تكتسب فى جيل يليه أو يأتى بعده . ثم قدرت عوامل التربية وأثر الفردية فى العائلة ، وروح الألفة فى الأسرة ، وشجاعة الرأى ، ونموّ الشخصية ، والاعتماد على الذات وغير ذلك من الفضائل الخلقية المكتسبة من البيئة ، وهى مناعات تقى الفتيات كما تقى الفتيان من عثرات المجتمع وغوايات الشباب ومزالقه ، ووازنت بين نموّها فى بعض العناصر المتمصرة وبين خمولها فى كثرة العنصر المصرى الأصيل .

كادت تقديراتى وموازناتى تقضى على فكرة الزواج ، ولكنى عدت فقلت بوجوب الاتصال بالشاب الخاطب إذ ربما أتلمس فيه عقلية تناسب عقلية ابنتى ، وقد تكون تقديراتى إن كانت صحيحة بالنسبة لكثرة الشعب المصرى ، خاطئة بالنسبة المتعلمين والمثقفين من الجيل الجديد .

لقيت شابا بهىّ الطلعة ، وثيق التركيب ، حلو الحديث ، جم

الأدب ، أتقن حفظ ما لقّن من دروس فى معاهـد أوربا قد تعينه على أن يكون موظفا لين العريكة سلس القياد فى الدوائر غـير الإدارية فى الحـكومة ، كما لمست فيه طبيعة المصرى الـكامنة فى الأجـير والمزارع ورب الأرض ، وطموحا إلى التقرب من الحـكام والتوسل بهم للوصول إلى من هم أعلى منهم مكانة من أرباب الحـل والعقد . كذلك رأيت فيه انصياعا للأوامر وانقياداً أعمى لتحكمات عائلية ومؤثرات محلية وخلائق إقليمية ، جعلتنى أتقلب بين حالتين من التوجس والريبة ، ولكن سرعان ما انمحت تقديراتى تلك بجرّة قلم عند ما شمت الرغبة تتراقص جذلانة فى عينى ابنتى ، واللهفة على الزواج تسيل ابتسامات حلوة على شفتيها .

قلت فى نفسى : فلأبادر فى التوسل بآخر ما يملك الوالد من وسيلة لإسعاد ابنته ، فاشترطت على الشاب الاسـتقلال عن والديه فى السكن فيتدرب على أن يكون ربّ البيت ، والعمل منفرداً عن والده فلا يكون هو وزوجته حميلة عليه أو أجيرا لإخوته ، وعلى ألا تقام أفراح وزينات لزواج قدسيته فى إسراره .

رضى الوالد والولد بالشرطين الأول والثالث ورفض الوالد الشرط الثانى لاعتبارات عائلية قائمة على أن الأرض الموروثة عن الآباء والأجداد يجب الحرص عليها والاحتفاظ بها للأبناء والحفدة ، لأنها مصدر حياة الأسرة وسرّ قوتها ووجاهتها .

رضيت ... ورضيت ابنتى واتفقنا على تحديد ليلة الزفاف .

رأيت الفتاة تترك المائدة وتنسل من باب الغرفة ، أما الوالد فقد

استطرد يقول :

أسلمت ابنتى إلى زوجها وقد شعرت بأن قلبي قد انتزع من صدرى ليعيش سعيداً بعيداً عنى ... ولما ابتعدت السيارة التى أقلت العروسين انكفأت إلى غرفتى أبكى ... لقد بكيت المرحومة زوجتى وقد تركتنى أفرح وحدى بزواج ابنتنا الوحيدة .

لم أدر كم من الساعات انصرمت من تلك الليلة التى أحييتها أتطلع تارة إلى نجوم السماء أختار أكثرها تألقا فأضرع إلى الله القدير أن يجعل ذلك النجم الساطع قريناً بحظ ابنتى وسعادتها ، وتارة أخرى أرنو إلى البرية الخضراء وهى ساجيـة تحت ضوء القمر ، فأسأل الخالق العظيم أن يجعل بطن ابنتى فياضاً بالذرية كريماً خيّراً مثلها .

ولما أدبر الليل وانبثق الفجر ، كنت جالساً فى شرفة البيت أسبح فى ذهول الاطمئنان والراحـة ، فى تلك اللحظة من انصرام الليل وغفوة القدر سمعت الباب يطرق ... استيقظت من لذة الذهول وهرعت أفتح الباب للطارق وإذا به ابنتى العروس ؟ ؟ ! !

قرأت فى وجهها على نور المصباح سطور هدوء النفس ... لم تكن عابسة الوجه ولا باسمة الشفتين ، ولمحت كبرياءها تتجلى فى نظرات عينيها ، وسمعتها تقول وقد ارتمت على مقعـد قريب « يحسن بنا ، يا والدى العزيز ، أن ننام قليلا وفى النهار أقص عليك أحداث الليلة .

فهمت من كلام ابنتى أشـياء وأشياء ، أو قل إن الشيطان أدار فى خلدى خواطر الشاب الأرعن وحماقة الطائش الأخرق ، ولكنى عدت

فملكت زمام الفطنة وحكّمت عقلى ، والعقل ياسيدى الدكتور روح الله .

ثم كفكف دمعة انحدرت على خده واستطرد يقول :

آه يا سيدى من ظلم الرجل وجبروته ! نقوم على تهذيب الفتاة وتعليمها ، ونحبب إليها الحياة الزوجية والسعادة المقترنة بها ، نطالبها بالعفاف والصون وبفضائل ترضى أنانية الرجل ، ولا نفتر عن التربص بها وإلقاء مختلف أنواع الشباك ونصب الفخاخ لاقتناصها ، لا نتورع عن إغرائها بوعود الشرف وأيمان الحب ، فإذا ما المسكينة ضعفت ، كشّرنا لها عن أنياب الشر ، ووصمناها بالفجور ، وأنزلنا بأهلها العار .

لم أمهل عاطفة هذا الرجل الذى أثقل صدره هذا الهمّ الموهوم ، ولم أدعها تهدأ من جيشانها ، بل نهضت فأخذت كفه بين كفىّ وهززتها بقوة حارة مخلصة وقلت :

أنا مثلك يا سيدى المدير أومن بعقل الإنسان فاسمع ما أقول كطبيب مارس مهنته عدة أعوام مرّ بى فى غضونها من الحوادث ما لا يخطر لك ببال ، أكثرها من نسيج الإنسان وبعضها من صنع الجهل ، وأقلها من شذوذ بناء الطبيعة وخللها ، ولكنى لا أعرف من الأحداث ما هو أشنع من التشهير بقدسية الزواج . إنه من الفضيحة أن يكون الجهل مسبار العفاف ، وأن يكون شرف الأسرة رهيناً بغشاء مهلهل فى وسم الإنسان تمزيقه وإعادته سليما غير ممزق وقد يتمزق من ذاته ، والأنكى من هذا أن يكون هوج الرجل من ناحية ، وحياء الفتاة من ناحية أخرى ، أو يكون الألم باعثاً على إساءة التصرف فتكون فضيحة

حيث لا فضيحة وعار حيث لا عار مطلقاً . والأدهى من كل هـذا أن تستأثر أمة واحـدة فى العالم بهذا الجهل المفرد الزرى وتختص به وحدها دون أبناء البشر حتى العائشين منهم على الفطرة الأولى . إنما يجب ألا ننسى أن هذه العادة آلت إلى التراخى وهى لا بد صائرة إلى الزوال كما اضمحلت عند الطبقات التى هذبها العلم وأنارها العرفان .

— مهلاً مهلاً يا سيدى الدكتور ، فإن الأمر أيسر مما تظن ولـكنه أغرب مما تتصور . وإليك رواية ابنتى فى وصف الواقعة ، وهى صادقة فى كلامها ، لم أعلمها الكذب فهى إذن لا تكذب . قالت :

.....استقبلنى أهل زوجى بالترحاب والفرح ... أخذنى زوجى بيدى فأدخلنى غرفة نومى وكانت حافلة بنسوة عرفت منهن حماتى وبناتها ... رغبت إلىّ حماتى أن أنضو ثيابى فى حين وقف زوجى يتأهب للصلاة . ولما همّ بالتكبير انقطعت أنفاس المتـكلمات ... كنت جالسة على أريكة فى زاوية الغرفة كمن يشاهـد رواية تمثيلية ... سلم المصلى ومسح وجهه بكفيه ونهض ... ناولته أمه منـديلا واسعاً من الحرير الأبيض ... فى هذه اللحظة أحسست بقبضتين قويتين شدتا ذراعى إلى الوراء ... جنّ جنونى ولـكنى تمالـكت ... نصحت لزوجى أن يتمهل ... لم تقنعه حجتى بوجوب الإقلاع عن هذه السخافة الفاضحة القذرة ، وأنه سيتحقق هو وحده من بكارتى ... تشدد فى وجوب احترام العادة وحتم أن يرى بعينه ويشهد أبويه وأهله على صحة ادعائى .

قلت بارادة عازمة هـذا هو ما أرفضه ... فأجاب بعنف : بل هذا

ما لا بد منه ... صممت وصمم ... حذرته عواقب رفع يده على ... تصاممت عن سماع كلام أبيه وأمه ، ورفضت الاحتكام إلى أبى لأن المشيئة هى مشيئتى ، والعفاف والبكارة هما عفافى وبكارتى ، وقلت على مسمع من الجميع : « لم يبق لهذا الزوج المتعلم مكانة الرجل فى نفسي » .

طلبت من الحكومة يا سيدى الدكتور إحالتى إلى المعاش وجئت أسكن هذه الضاحية فى رمل إسكندرية بعيداً عن الناس كأن الدنيا هى بيتى هذا وسكانها ابنتى ، بل هما كل شىء فى وجودى ، ولم أبرح هذا البيت منذ جئته من نحو عشر سنوات ، وسكت .

أحسست يا صديقى بأنات السكوت ترنّ فى أعماقى ، وبآهات الوجع تلهث فى صدر هذا الرجل الشريف فقلت له : « يعز على يا سيدى المدير أن أرى رجلا مثلك تعذبه جهالات الناس وتقاليدهم البالية يحدثنى عن هذه التوافه باعتبار أنها آلام توجع ، وتضنى ، وتشقى . بر بك يا سيدى من خادمك أن يدعو المأذون أو دعنى أدعوه بنفسى ، فقد يشوقنى إقحام فرحة الحياة على نفوس ثلاثة تعطلت عن معرفة حقيقة الحياة والشعور بها ... وتزوجت .

خرجت كلمة « تزوجت » من بين شفتيه تحمل أبهى لمحات الابتسام وأبهج رنات الفرح ، وأطرب نغمات السرور .

* * *

وقف الدكتور مودعا ولكنه لم يمدد لى كفه المصافحة ، بل رفع إصبعه فى وجهى كالمنذر المحذّر وقال : « لقد رضيت هذه المرة أن أستجيب

دعوة الصديق الذى لاتنسى صداقته لتوليد زوجته . فإياك أن تدعونى مرة أخرى لمثل هذا الغرض . لقد هجرت مهنة الولادة وعافت نفسى مجابهة الحقيقة مجردة من المرأة . أريد أن أكون شاعراً خصب الخيال فأبتدع للوجود والموجود جمالا أفتنّ فى تصويره ، أنفخ حتى فى الأشياء روحاً تجعلها تحس بدائع هذا الكون فتشترك مع عقل الإنسان فى تمجيد البارئ الأول .

لقد جعلت بيتى ، كما ستراه يا صديقى — ومدّ إلىّ يده للوداع — دنيا حافلة بالأزاهير غير الخالية من الأشواك ، وستتعهد زوجتى بجعله تارة جنات نعيم وتارات أخرى سعير جحيم .

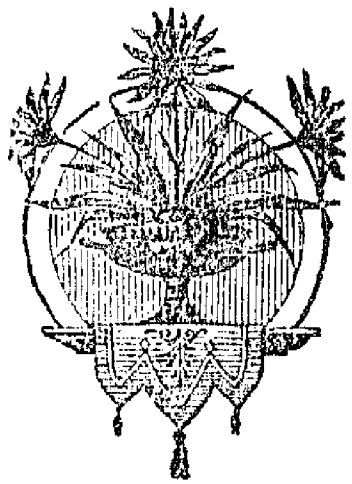

الہام

نوهمت أنى الشرق المتأمرك الوحيد بين ركب الباخرة التى بعث بها الرئيس روزفلت إلى الشرق لتعود بالأمريكيين إلى ولاياتهم المتحدة قبل أن تقطع الطريق عليهم الحرب الوشيكة الوقوع بين أمريكا واليابان وحليفتيها . توهمت ذلك ، لأنى لم أرَ ساعة رفعت الباخرة مراسيها وأخذت تبتعد عن الميناء مودعا واحداً يلوِّح بمنديل ، ولا بصراً واحداً رنا لراكب واحد من ركاب هذه الباخرة التى ستشق طريقها بين مجاجات الجحيم المستعرة بين أنصار الحرية وأشياع الفردية .

ألقيت بالنظرة الأخيرة على ميناء بيروت ، ولما اختلطت الرؤى ، وصرت لا أميِّز بالعين المجردة إلا أشباح جبال لبنان الضاربة قممها فوق الغيوم دون أشجار الصنوبر الخالدة ، طفقت أرود الباخرة أتطلع إلى ركابها الأمريكيين .

إن الروح الجماعية أصيلة فى خلق الأمريكان ، تستهويهم المغريات كالفرنسيين ، ويدفع بهم حب الاطلاع إلى معرفة ما خفى من الأمور ، وما استتر من الأشياء وخفايا الناس أيضا ، وهم لا يتورعون عن المراهنة على كل حدث أو خاطرة ، فهذه الخاصة هى التى حفزت أكثر الركاب ، وقد تعارفوا وتآلفوا ، إلى معرفة طوية رجل متأمرك آخر سواى ، نفور جالس فوق كرسى مستطيل من كراسى الباخرة لا يجيب عن سؤال

راغب ، ولا يلتفت إلى طلب أى طالب ، سيدة كانت أم رجلا . وقد استعان هؤلاء الطلعات بى ، وكانت رغبتهم فى معرفة أزورار مواطنى الشرق تكاد تنقلب شهوة ملحاحاً أكثر لجاجة من حبه الرهان .

قالت لى فتاة رفافة البشرة : « أحسب صاحبك عاشقاً ، لأن الحزن يجلل نفسه بوشاح من اليأس ؟ ! وقالت سيدة فقدت حيلتها فى مغالطة نفسها فتركتها لأقدار الزمن : « صاحبك هـذا قوى الغرام وهـذه حالة تنتاب الـكهول حين يشعرون بالهرم » وقال شيخ : « قد يكون سبب حزنه عدم إتمامه بناء القصر الذى بناه فى قريته فتركه يعشش فيه الخفافيش والبوم وعاد إلى أمريكا يجمع الدولارات ليتم بناءه » ولـكنى فى بطنى ، وهو يضحك ، لـكمة لولا تعود بطون الأمريكان تحملها لأفرغت ما فيها من كل منفذ . وقال آخر يتعمد الرصانة : « الجنسية الأمريكية للبنانيين حصانة تقى أطماعهم من طغيان إخوانهم الأقوياء » ، فقالت الفتاة الصبية مخاطبة هذا المعترض : كنت دائما يا عمى العزيز تـكبر فى اللبنانيين مقدرتهم فى شق طريقهم للحياة برغم تحاملك عليهم . قلت وقد قطعت على هؤلاء النقادة حبـــل استرسالهم : « هذا بحث فى خصال قومى سأحاسبكم عليه فى ظرف مناسب ، أما الآن وغايتكم معرفة صدوف مواطنى عنكم ، فأنى أتـكفل بإشباع رغبتكم و إرضاء فضولـكم .

البحر والوحدة أنجع دواء للشفاء من لوعة الحزن ، بل لا حرج على القائل : « إذا انطلق لسان محزون بالشكوى فقد زال نصف دائه ، و إذا

لقيت شكواه قلباً واعيا انتقلت إليه » لقد استطعت بوسائلى الخاصة حل عقدة لسان هذا الحزين وهو من مدينة فى لبنان اشتهر سكانها بالفطانة والذكاء ، وعرفوا بالصلابة والعناد والأريحية والشمم لتأصل صفات الحرية فيهم ، فقال لى :

أتعرف حى البرازيلى فى زحلة ؟

قلت : أعرف الأبنية الجميلة المزخرفة القائمة على ضفاف البردونى .

قال : يوجد فى عاصمة البرازيل حى يشبهه فى هندسة البناء يدعى الحى الزحلى .

قلت : ما علاقة هذا بذاك ؟

قال : لست أبالغ إذا قلت لك إن جل طلاب الكلية الشرقية فى تلك المدينة كانوا يتوجهون وجهة الهجرة إلى البرازيل ، ولم يكن يجول فى خواطرهم إلا نيل شهادة الدراسة والرحيل إلى البرازيل واللحاق بإخوان سبقوهم إليها ، وهمهم العمل والكسب ، يبنون بناية جديدة فى الحى الزحلى فى البرازيل ثم العودة إلى زحلة يشيدون قصراً فخما فى الحى البرازيلى الفخم .

قلت : أعرف روح المغامرة فى الزحليين دون سواهم من المهاجرين من لبنان .

قال : ما كدت أفوز بالشهادة المدرسية حتى رغبت إلى والدى أن يأذنا لى بالسفر إلى البرازيل وقد وافقا مكرهين .

كانت الباخرة التى أقلتنى آنذاك تعج بمئات من المهاجرين أمثالى ،

وكانت مناديل المودعين ترفرف كأجنحة الحمام ، والعيون ترنو بين ساهمة ودامعة ، والقلوب تخفق خفقان حنان وحب ورجاء .

كنت مشرد اللب ساعتذاك ، أنظر إلى أمى وأبى بعين الولد البار ، وانظر إلى فتاة كانت بجانبهما بعين قلبى . لم تكن الفتاة غريبة عنى ، بل كانت من أقاربى الأبعدين ، وقد جاءت من « كفرشيما » خصيصا لوداعى . كانت معرفتى بها بسيطة محدودة ، أما فى ذلك الموقف ، موقف الوداع ، فقد انفتحت لها جوارحى فأحسست فجاءة بأن كل ذرة من كيانى الذاتى تدعونى إليها ، وأنها هى هى المتممة لتكامل وجودى فى الحياة ، فوثبت على غير وعى وثبة قلب محفوز ، وأخذت أدفع الناس حتى شققت طريقى إلى سلم الباخرة ، فهرولت نحو والدىّ ، فأخذت يد الفتاة بيدى اليمنى ويد أمى بيدى اليسرى ، وقلت لوالدى هاك « أنيسة » خطيبتى بل زوجتى بالروح ، احتفظا يا والدىّ بها . لن يطول غيابى . سأقتحم البحر ، وأشق المنجم حتى أصل إلى الذهب أقتلعه من أصوله فأقدمه عربونا للزواج من حبيبتى « أنيسة » هذه . وقبلت جبينها قبلة خاطفة فيها كل الدوافع والبواعث والحوافز .

كان يتخلل حديثنا فترات ينقطع فيها الحديث لإشعال لفافة أو مسح الجبين للاستذكار ، أو مشاهدة دارعة كقلعة تترنح ، أو غواصة تطفو وتغوص ، أو أسراب من طائرات تهبط واحدة منها أو ترتفع للاستكشاف .

قال محدثى : غمر البحر معالم الأرض ، ولم تعد العين ترى إلا قبة مكورة فوق وجه الماء ، وكنت أرى بعين البصيرة وجه « أنيسة »

الصبوح ، وعينيها الصافيتين الناعستين تدفعانني دفعاً إلى الأرض الجديدة التي سأنبش تربتها كالحَلد وأقضم خيراتها كالجراد .

بدت منابت الأمل في نفسي تمتد سوقها ، وتبرز براعمها ، وتورق وتزهر . وأخذ خيال السعادة يحوطني بشملة من فرح تزيني وجه المستقبل نضراً بساما ، فوددت لو أستحث الباخرة أن تثب فوق اليم فتجتاز المحيط ساخرة من أنوائه وعواصفه فأصل طفرة إلى حلبة الجهاد والعمل. ثم صمت هنيهة وقال :

لقّنني مواطنيّ في البرازيل بضع كلمات من لغة البلاد ، وبعد أيام معدودات ملأت أكياسي بأنواع من جوارب ومناديل وأدوات زينة أعطانيها تاجر سوري ، أطوف بها شوارع عاصمة البرازيل ، أقرع أبواب المنازل أعرض على ربّاتها بضاعتي . كنت أحس الشفقة بي والضحك من رطانتي واغتفار جرأتي وفضولي ، كان تقبّل البرازيليين إياي على هذا النحو يحز في كبريائي فانتقلت إلى الضاحية . جبت الريف وتوغلت في القرى النائية أسعى على أقدامي ، وكلما نقصت بضاعتي كنت أرسل في طلب سواها من عميلي الذي استأمنني ولا ضامن لي عنده سوى أني مواطنه ! ؟

لله در الأمريكاني يا صديقي من عطوف شفوق ! ولكنه طامعة مغامر مراهن ، تستضيفه فيطعمك ويؤويك ، لا عن كرم ولا بدوات خاطر ، بل عن فضول حافز ملح إلى الاستطلاع والمعرفة .

ركنت إلى الريف أبيع سلعي لا أنفق إلا نادراً في شراء سيجارة أو كوبة شراب أو إرضاء رغبة متواضعة ، وإن هبطت المدينة فإنما أهبطها

لأدفع ما على من دين لعميلى أو أودع فى المصرف ما يتبقى معى من مال .

أخذت أرقام ريالاتى تزداد أسبوعا بعد أسبوع ، وشهراً بعد شهر ، فصرت أسخو بتحويل عشرات منها لوالدىّ ولأنيسة .

لم يكن شىء فى الوجود يعادل فرحى حينما كنت أقرأ كتاباً وارداً من والدىّ يقول أبى فى ختامه ، « أما خادمتك أنيسة فتهديك السلام وتقبل يدك » .

كنت أغتفر لوالدى تمسكه بعادات أصيلة واعتبارات تقليدية فى كينونة المرأة ، وكنت أطلق أعنة خيالى تجول فى عوالم الرؤى أتصور نفسى ملقى عند أقدام « خادمتى » أنيسة أقبل يديها .

أجل ياصاحبى كنت أبعث بكتاب فيه تحويل مالى وألحف فى طلب وصل بالاستلام لأقرأ تحيات بريئة ساذجة ولازمة مستحبة لايحيد والدى عن تسطيرها بالنص الواحد فى كل كتاب : « خادمتك أنيسة تهديك السلام وتقبل يدك » .

اتقدت نيران الحرب العالمية عام ١٩١٤ وامتدت ألسنتها المحرقة إلى جميع أرجاء العالم القديم ، أما العالم الجديد ، برغم اشتراكه فيها فى الساعة الأخيرة ، فقد راجت أسواقه التجارية وعم الرخاء كل الناس . كنت إن أعجب من شىء فعجبى من أخبار كانت تنشرها صحفنا فى أميركا عن بؤس الناس فى لبنان وموت بعضهم جوعاً ، ولم يكن يخامرنى شك فى أن أنيسة المحبوبة ووالدىّ العزيزين أبعد من أن ينالهم مايناال الناس الذين تكلمت الصحف وأطالت فى وصف حالهم ! .

انقطعت أسباب الاتصال بينى و بين أهلى ، ولكنى كنت أغالط نفسى ، أتعمد المغالطة ، فأرسل الرسائل والتحاويل المالية كالعادة إليهم بدون انقطاع ، وأتهم إدارات البريد بالتقصير فى القيام بالواجب ، وكنت أطمئن إلى المغالطة المستحبة لتحيد بى عن مجابهة الحقيقة . وما كادت أجراس الهدنة تدق معلنة رجوع الإنسان إلى وعيه وانعتاقه من وحشيته التى لابسته طوال أربعة أعوام ، حتى عقدت العزم على العودة إلى الشرق .

عند سفرى إلى أمريكا كان الأمل يحدونى ، وقد افترّ لى ثغره وابتسم ، فصار حين عودتى منها إلى وطنى يحدونى الشوق والفرح ، فهل ينضحانى يا ترى بأنداء السعادة ؟ كنت فى الذهاب أستحث الباخرة لتصل بى إلى ميدان الجهاد والعمل ، وقد توسلت إليها فى الإياب أن تسرع السير لأصل إلى مقام الحبيبة ، مقر الوالدين ، فهل يلازمنى الحظ فى هذه المرة أيضا ؟ كان دنو الباخرة من الشرق ينسل خيوطا من غشاوات غالطت نفسى فى تبين ما وراءها ، و يلقينى فى غبش صبح يتنفس الريب والشكوك ، وكثيراً ما كنت أستيقظ من أحلامى ، أنفض صور الذعر وأطرد الخيالات المرعبة ، ولكننى كنت أتجلد وأبتسم ! .

كل شىء فى ميناء الوطن باق على ما كان عليه إلا مظاهر مجاوبة ، ورطانة مقتبسة ، يممت المدينة ، لم ألتفت إلى همّة ناشطة فى حركة البناء والتعمير ، بل شقت سيارتى طريقها إلى الجبل . صدمتنى مشاهد بيوت خربة وقرى مهجورة ، أما قريتنا « كفر شيما » مسكن الحبيبة أنيسة فقد كانت مثالا بارزاً للأطلال الدارسة . أين أبى وأمى ؟ أين أنيسة ؟

أسأل الجار ولاجار ، وسألت الناس وإذا بهم غير الناس . جبت الدساكر المتناثرة حول القرية . لجأت إلى دير « القرقفة » إلى القساوسة ، استهنت بالعجائز على التعرف على أهلى وأقربائى ففزت منهم بفيض من الأخبار المرتجلة والأكاذيب المفتعلة ، والحيرة الكبرى !؟ ذهبت إلى مدينة «زحلة» أسأل عن أمى وأبى فقيل لى : إنهما رحلا عن المدينة منذ سافرت ! قد يكون الموت اخترم والدى الشيخين ، ولكن أنيسة ، الريانة الشباب ، الغريضة الصبا ، هل يقوى الموت اللعين على أن يمد لها يداً ؟ هذا محال بل المحال هو هذا !

نهض من مكانه وأخذ يمشى بخطوات واسعة ، ولما عاد إلى مجلسه كنت أتخيل أمارات الهلع ترتسم على محياه فتحل عقدة صبره ، وإذا بجبينه تعلوه مسحة من أمل . فقال بصوت حازم : لا يستنيم الأمل فى نفسى ولا يهجع . سأترصد الرجاء وأقاوم شبهات اليأس ، وأجد أنيسة . سأجدها لأنى أرى بصيصاً من روحها يشع فى أعماق نفسى ، وأصغى إلى هاتف روحها يدعونى ، إذن سأجدها . استعادتنى أشغالى المتعطلة إلى أمريكا . . . استغرقتنى الأعمال أو كادت تنحرف بى عن اتجاه بصيص أمل كنت أتطلع إليه . كان خيال « أنيسة » يلازمنى دائما ، فى الفراغ وفى العمل ، ولم أكن أذكر والدى المسكينين إلا قليلاً ، أستنزل عليهما الرحمة أو أكلف قسيساً إقامة صلاة على روحيهما . لم يكن نداء أنيسة آتيا من وراء المجهول ، بل كنت أسمعها وأراها وأحس بها تتقلب على أذرع الوجود ! هل تزوجت ؟ أشقية هى ؟ !

وفى يوم من أيام ربيع عام ١٩٣٧ لج بى لاعج خفى فنازعتنى نفسى ودفعت بى – على رغم منى – إلى العودة إلى الوطن أعيد الكرة فى الاستقصاء والاستخبار . لم أمهل عقلى مهلة ليهدينى إلى الممكنات ويريني المستحيلات ، بل لبيت الهاتف الخفى وعدت إلى لبنان . وفى صبيحة يوم بينما كنت أصعد الجبل إلى كروم العنب والتين ، إذا بى ألقى فتاة تحمل سلة على كتفيها مغطاة بورق الدوالى . نظرت إليها فإذا بها وضاحة المحيا ، ساجية الطرف ، مليحة المعارف . استوقفتها فأجفلت . لمحت فى عينيها نور نفس أنيسة . صرخت على رغم منى : أنيسة ، أنت أنيسة ؟ !

وقفت الفتاة مبهوتة تجيـــل نظرة حيرى من عينين عقيقيتين مغرورقتين بدموع رقيقة وقالت : لست أنيسة يا سيدى ، بل أنا يمنه ، إسمى يمنه .

يمنه ! يمنه من ؟ أين أمك ، من هو أبوك ؟

ألقيت أسئلتى بنبرات سريعة جافة كادت تربك الفتاة ، ولكنى استدركت الأمر بتهدئة اضطرابى فتعمدت الابتسام لأدخل الطمأنينة على نفسها ، فقلت هل لك أن تحدثينى عن والدتك وأين هى الآن ؟

قالت بصوت مختنق : تعيش أنت يا سيدى ! لقد ماتت أمى ومات أبى من زمن بعيد .

قلت : أتذكرين صورة أمك وما وصفها ؟

قالت : مات والدى قبل اكتمال وعيى ، وكل ما أعرفه عن أمى أنها

ماتت نفساء وأنها تدعى أنيسة الخشتاوى ، أما أبى فأرمنى لا يحسن أحد نطق اسمه واستطردت كأنها أحست تشوقى إلى الاستطلاع فقالت : إن عائلة بطرس بك قد ضمتنى إليها ، وقد نشأت واستيقظت نفسى بين أولاده وخدامه .

كادت عبارتها فى وصف يقظة نفسها تشفانى عن غرضى ، وقد أحسست بعاملين قويين وثبا علىّ وأغارا على مشاعرى : عامل الأمل ، وقد تحقق بلقيا هذه الفتاة التى لا شك أنها ابنة أنيسة ، وعامل نفسانى يماثل يقظة الحب التى استيقظت حين رأيت أمها إلى جانب والدىّ ساعة الوداع فى الهجرة الأولى .

رافقتها إلى بيت مخدومها ، وإذ كنا فى الطريق كنت ألمح فيها طمأنينة الطفل إلى جوار أمه ، وكانت الأفكار والصور والتخيلات ومرائى الماضى والحاضر والمستقبل تتعاقب على ذهنى فتزدحم فيه وتكتظ .

طلبت من بطرس بك يد خادمته « يمنه » فلم يمانع فى الطلب بل علقه على رضا زوجته التى كان يعز عليها فقد خادمتها اليتيمة التى لا تليق بمقامى المرموق .

لم أدع « يمنه » تشعر طوال أيام الخطوبة أنى كنت أعرف أمها ، وقد غام أو كادت تمحى من ذهنى صور الماضى التى تقمصت وانبثقت متجسدة فى شخص « يمنه » .

أخذت أوقظ نفسها وأشعرها ، رويداً رويداً ، بوجدانها الذاتى كانسان له كامل الحق فى وجوده وحريته فى الحياة . كانت تصغى إلى

أقوالى بوعى وتتلقفها بعينيها . صرنا نقرأ الكتب فاندمجت روحها بروحى، وما عتمت أن تحولت من تلميذة نجيبة إلى فتاة تدرك وتدرى وتتذوق وتتمرد .

كم تمنيت مطاولة الزمن لأيسر لها مجال الروح فى حلبة الحياة بدراية وفرح ، وكنت أنسى فوارق العمر وقد ناهزت الخمسين ، وهى تشرف على العشرين . لذلك أسرعت إلى عقد إكليلى وقد تطوع بطرس بك وزوجته أن يكونا « إشبينينا » فى الزواج ، وقد أصرّت زوجة بطرس بك على إلباس عروسى « فروة » المشيخة إجلالاً لفتاة يتيمة انتقلت إلى مصاف الطبقة العليا .

صمت محدثى قليلا وقد عات وجهه سحابة غبراء ، ولكن ما لبث حتى أشرق جبينه وقال: جعلت نفسى أنا الرجل الكهل فاتحة غرام لزوجتى الصبية وقلت : أترى تكون بنيتى هذه خاتمة غرامى كما كانت أمها مقدمة كتاب حياتى ؟ كان مجرد هذا الخاطر وقد داهم ذهنى ليلة الزفاف ، كافياً لأن يبعث فىّ حيوية بكراً ، ويدفعنى إلى أن آلى على نفسى وقف وجودى وما أملك على زوجتى ابنة حبيبتى . كم تمنيت فى ساعات الغبطة والهناءة التى كانت تفيضها زوجتى علىّ أن تطبق بأصابعها أجفانى فأنام أسعد نومة أبدية ، ولكن سرعان ما كنت أنتفض مذعوراً إذ أتخيل استجابة أمنيتى فأقبض بذراعى القويتين على جسم زوجتى البض اللدن أتشبث به كالطفل ، أتمتم بكلمات متقطعات أغمغمها بلا وعى استحياء منها ومن نفسى الملتاعة .

لا تعجب يا صاحبي إذا قلت لك إني كنت أحيا بشخصيتين ؛ وأعيش بماضيين ، وقد كنت أقوى على صهر روحي في بوتقة لا دخل فيها ولا زيف ، وعرفت السعادة معرفة حسية ، واستبدلت أنواعاً منها عامة شائعة بنوع لدنّي روحي بحت .

اذكر يا صاحبي فوارق العمر ، وتنوع الاختبارات ، ولا تنس فواصل العقل ونزعات المشاعر ، ولك أن تقدر بعد هذا أن اضطرابي وخلجات نفسي ووساوسي ليست سوى مجرد أوزان قلقة لرجل شارف الخمسين من عمره ليعيش في جنون العشرين . ضحكت طويلا من الزمن وانتقمت كثيراً منه ! وسخرت من تقديرات أناس يعيشون في الضباب ويقدرون علة في زهرة لم تتفتح أوراقها في الربيع ، حاسبين وجوب انطباق علم النبات على عالم الإنسان ، جاهلين النفس وعجائب الغريزة وأسرار الروح ، وقد تتفتح أكمام روحي في غير فصل الربيع .

سنحت التفاتة مني فلقيت رفاق الباخرة ، الأمير كان الطلعة مشرئبين كأن أعناقهم تمتد إلينا لتسمع آذانهم حديثنا ، وكانت هذه الالتفاتة سبباً لانتشال محدثي من أعماق نفسه . أشعل لفافة وأخذ ينظر إلى حلقات دخانها تفنى في الهواء . لم أكن أجرؤ على مطالبته بإتمام حديثه . أطفأ سيجارته ثم التفت ، فلمحت ابتسامة باكية ترتسم على فمه وقال : انقضى الصيف والخريف ، ثم الشتاء والربيع ، وأنا قابع في داري أرتع بنعم تفيضها على زوجتي المحبوبة ، مشمولا بعناية خاصة منها ، وكانت كلما طمأنت نفسي بالغبطة تهيئها بغريزتها لغبطة جديدة ، وهكذا

كنت أرى الأوضاع مقلوبة كأنى أنا وليست هى الطفل الخليق بالتدليل ! لم أكن زوجاً بل أبا ، ولم تكن لى سوى ابنة معبودة ، وكان هذا الإحساس المختلط يحفزنى إلى إشعارها بأنى زوج قبل كل شىء ، وكان الحياء يصدنى تارة ، وتارة أخرى يدفعنى إلى إثبات رجولتى ، وكان يجن جنونى كلما دهمنى إحساس تخاذل أو فتور ، إنما الشعور بالتخاذل فى مثل هذا الحال يخلق الحركة العنيفة دون وعى . أطلقت السيادة للجسد ، وجعلت العقل خادمه المهمل ، اسمع يا صاحبى لا شىء يجعلنا ننحرف عن سبيل هدى الطبيعة سوى عنعنات العقل ، أليس كذلك ؟ واستطرد . كدت أغرق عند شاطئ الغريزة غير حاسب أنها أوسع وعياً من إدراك الإنسان الحكيم ! أقول لك يا صاحبى إن الغريزة امرأة ، والمرأة إرادة ، والإرادة تحايل على البقاء والخلود ، ولكل هؤلاء غاية واحدة هى «حفظ النسل» وقد تجمعت هذه الادعاءات وانسجمت متوحدة فى ذهنى حين همست زوجتى فى أذنى « إنا سنصبح أبوين » . سوف أصبح أبا ؟ يا لجنون السرور ، بل يا للسرور المجنون ! أحقاً يكون لى ولد له لطف الملائكة ولغتهم وصفاء السماء وتفتح الزهرة ؟ إذن سأسميه باسم المرحوم والدى ، سيبقى اسم عائلتنا يمدى إلى الأبد ، ولكن أترانى أعيش حتى أراه رجلا يستعجله الطمع فى الاستيلاء على أموالى ؟ سيان عندى ... سأعود إلى العمل ، وأضاعف ثروتى لا لتكون حجابا بين ولدى والفاقة ، بل سلماً يتوقل عليه ليبلغ قمة المجد الزمنى . هذا ما جال فى خاطرى ساعة وافتنى البشرى السعيدة . غدوت يا صاحبى فى فردوس من الغبطة

والسعادة يرف على خمائلها خيالى الفياض ، وتبدع فى زخرفتها وتنميقها تصوراتى . لم أكن ذلك الراعى وقد صدمت هراوته جرة السمن فاندلقت أحلامه ، وتلاشت آماله وأمانيه ، بل كنت ذلك المحارب الهمجى الظافر لم يصده النهم عن الأسلاب والسبايا، ولم ينتقص الحرص والحيلة من ادخاره استعدادا لموقعة مقبلة .

عادت إلىّ أطماعى طافرة وتنبهت هواجسى وظنونى ، خلت الأيدى التى تعمل فى إدارة أعمالى تنهب خيراتى ، وصوّر لى شيطان الحرص أن عمالى الأمناء ائتمروا بولدى ليحرموه ما كسبته طوال أعوام الشباب بعرق الجبين وادخرتها له وحده !

لقد انقلبت طفلا ولابستنى حالة جديدة ليس فى وسعى تصويرها . صرت أرعى زوجى الحامل كرعاية الأم رضيعها ، وأحرص على القرش الواحد كما لو كان ديناراً ذهباً . كنت أصدف عن الصحاب وأزورّ إذ ألقى ضيوفا فى منزلى ، وددت لو أحتاز خيرات العالم أقدمها هدية لولدى العزيز .

قلت لصاحبى فى شىء من المباسطة بغية إقشاع السحب المنتشرة فوق نفسه ، يخيل إلى أن « العامل الخفى » فى زوجتك هو الذى جعلك لجوجا وثابا تقدر الأشياء بمقدار التخيل والتصور . وقد لا يؤذيك إذا قلت لك بصراحة الصديق الصادق إن بلوغك « سر المرأة » ابتعث فيك الشهوة عنيفة حادة » .

أطرق قليلا وأجاب « الشهوة حيلة إرادة الحياة الكبرى على البقاء » نحن يا صاحبى نخلق الجمال ونعطى المعانى للأشخاص والأشياء . فالمعنى

الصحيح لسر المرأة الراحة والطمأنينة . صمت هنيهة ثم أردف « إن رجلا مثلى مفطور على العناد والمغالبة والكبرياء لا يرضيه الاستسلام والليونة والركون شأن أكثر الأزواج ... ثم تابع قوله كانت زوجتى ... فقاطعت كلامه قائلا : انتقال من الموضوع بارع ثم تقول : كانت زوجتى ، « وكانت » هذه تدل على فعل ماض ، فأومأ أن أتريث وتابع الكلام :

« كانت زوجتى ، أجل كانت زوجتى على شىء عظيم من عزة النفس والكبرياء والمغالبة ، وأنا أنا الذى أنميت فيها هذه الصفات وتعهدتها بدراية وحكمة ، كان يلذ لى أن تعلو حجتها على حجتى فأرضخ للحق ، وأن يصدم عنادها عنادى فتنتهى إلى الرضا ، ولم يبلغ كبرياؤنا فى ظرف من الظروف حد الغرور ، بل كنا نخلق الخصومة نورى بها الذهن فنستصبح بومضات الروح منبثقة من ظلمات المجهول ، من هذا التناسق والاتحاد جعلنا مواد بناء حياتنا الزوجية ، وقد استخلصنا من ضروب أنواع الحب فى فوضى الحياة خيطا كان لنا بمثابة « الهارمونى » من نشيد العمر ، يرتفع بفرحة الغاية من الوجود الإنسانى إلى أسمى مقام ، أما خيط حياتى هذا فقد انقطع ، أنا الذى قطعته بيدى ، أجل يا صاحبى أنا الذى قطعته بيدى . لقد حطمت جرة السمن فاندلقت أحلامى ، أنا الراعى الغبى ، وانساح أملى فى الرمل ، أنا الحمى الضائع ! !

نظرت إلى عينيه فإذا بنورهما قد ناص كصباح نضب زيته ، وأجفانهما تكسرت وجمدت فيهما دمعتان ، وعند ما أخذ يتابع الكلام توهمت الصوت آتياً من بعيد قال :

ذهبت وزوجتى ذات عشية إلى وادى العرايش ، وما كدنا نأخذ مكاناً قرب النهر حتى توافد الصحاب ، فاتسعت الدائرة ، واتسقت صفوف الأقداح وشعشعت النفوس فانطلقت الألسنة . لم تهدأ جلبة السكارى إلا حين ارتفع صوت المغنى يشدو « العتابة » برنين شجى وصوت رخيم تشترك مع معانى العتاب فى تطريب النفس و إثارة ما فيها من حزن وفرح ، وقد استفاض صدرى باحساس مضطرب إذ سمعت المغنى ينشد « غرّبوا أحبابى » وشعرت كأن أحبابا تنادينى ، لقد فاض الدمع من عينى وانهمر ، لا شك أنه دمع حنان النفس التى تضطرب فيها الآلام جميعاً ! ! ! ، فى هذه اللحظة تلاقت نظراتى بنظرات زوجتى ، فاعتلج فى صدرى شوق مفاجئ يدعونى بالحاح إلى العودة إلى أميركا حيث أموالى المتروكة فى بلاد الناس ، وعند ما عدنا إلى البيت سألتنى زوجتى متى نسافر إلى أميركا ؟ فى تلك الساعة عقدت النية على العودة إلى الوطن الثانى ، وفى تلك الليلة المشؤومة انتهى كل شىء ! ! ، أجل ياصاحبى فى تلك الليلة الملعونة انتهى كل شىء فى وجودى و بقيت وحدى كحروف رسالة بليدة جاثمة على قرطاس .

أخذ صوته يرتفع ونبراته تشتد ، وأمسك يدىّ بقبضة متصلبة وقال أنت تعرف أبنية زحلة متلاصقة ومنازلها متلاحمة لا يفصلهما من الجيران فاصل ، قلت أعرف ذلك ، قال :

كنت أسكن بيتاً من هذا الطراز القديم لأنه أقرب إلى إحساسى وألصق بذكريات طفولتى ، هذا البيت الذى كنت إخاله بقعة اقتطعتها الملائكة

من فراديس النعيم قد انقلب بلحظة واحدة إلى قبر فى الجحيم تحوطه نيران قلبي وألسنة الناس .

قلت : اكتشاف خيانة ؟

نظر إلىّ نظرة استخفاف خلتها تهز مكمن كبريائى فخجلت ، واستطرد قائلا : فى هدأة الليل حيث كل شيء هادئ إلا عيون السماء ، دوى الوادى أوتوهمت أنه دوى بصوت استغاثة قريب صادر عن قلب هلوع ، الحرامى الحرامى ... النجدة ... النجدة ! وتلاه ولولة امرأة مخلوعة اللب وعويل أولاد ... استيقظت بلا وعى أترنح من الذعر أو من الشجاعة ، تناولت مسدسى من تحت الوسادة وهرعت لأقتنص السارق ، لم يكن فى وسعى ترتيب التصورات المتداعية والخيالات التى تراكمت فى ذهنى وازدحمت فيه مبلبلة مشوهة ، توهمت السارق عميداً من عمداء الجبابرة سلطته قوى مجهولة تتربص بى لتنتزع منى زوجتى أمّ ولدى ، وارث أموالى ومخلد ذكرى . لقد جن جنون أنانيتى وثارت فىّ فطرة ، فطرة الإنسان ، أو غريزة لبوة بكرية اقتحم وحش ضار عرينها فهبت تدافع عن أشبالها ، كنت أروح وأجيء وأتوهم أنى أقفز من سطوح إلى سطوح ، أدور حول نفسى كالمولب ، أنادى السارق بصوت متهدج أجش ، اختلط صوتى بهجيج أصـــوات عشرات الشبان الذين خفوا مسلحين للفتك بالسارق ، إن السطو على منزل فى زحلة عروس مدن لبنان إنما هو تحدّ لكرامة أهلها واستهانة بتقاليدهم ونخوتهم ، لمحت شخصاً ماثلا قبالتى فتصورته عملاقا من الجن ينقض علىّ ، أحسست بالعملاق الجبار يرفع

يديه ليسحقنى ... أطلقت رصاصة أو انطلقت من المسدس رصاصة ردد الوادى صداها أصابت الهدف فسقط الجسم بدون حراك ، أيقظنى الانتصار من غفوة الذهول . فتنبهت إلى نفسى وإذا أرى حولى طائفة من الجيران أقبلت على صوت الطلق النارى ، سمعت صراخا وعويلا وحسرات فيها كل معانى الألم والحزن والشفقة ... أشعلت الأنوار ، تجمع الناس ، تبينت الوجوه ، فإذا بالعيون تحدجنى بنظرات أسى وحيرة ملتاعة مضطربة ، دهمنا الجند فإذا بهم يطبقون على القاتل يجردونه من سلاحه وقد دل الجيران عليه .

يا للأجناد الأجلاف ! يا لرجال التحقيق ما أطيب قلوبكم لقد منوا على تكرما منهم باطلاق حريتى ريثما أرافق جثمان زوجتى فأواريه التراب ؟ ! ! ! ، ويلاه لقد جمد جسمى فى تلك الساعات وتبلد شعورى وزاغت نظراتى ، كنت أعتصر عينىّ ، أستجدى قلبى قطرة من دمه ، ولسانى كلمة واحدة أنطق بها ، كنت أرى جثمان « يمنه » مسجّى فى النعش على رأسها أزهار الليمون الذى زانته بها يوم إكليلنا وقد غطى الورد ثوبها الأبيض الغارق بالدم ، وكنت كقمة الجبل الشاهق جموداً وبرودة . وهأنذا أحس بالوقائع ماثلة أمامى ، أصورها لك وفق الرؤى والشعور .

أحسست الأرض تدور بى والآلام تنساب فى نفسى تنهب وتنوش أعصابى . أما محدثى فقد اعتدل فى جلسته واشتدت نبرات صوته وقال : من السخرية الاستهانة بالعدل الإلهى واحترام شرائع الناس ؟ ! ! أليس

رعونة أن تبرأ ساحة القاتل و يطلق من عقاله ولما يجف دم المقتول بعد ؟ أليس ظلما أن تعاد إلى حريتى أنا القاتل الأثيم؟ أين القصاص من الحياة ؟ أمن العدل أم من الظلم أن أجوب الأرض ، أتسكع فى الشوارع ، أطوف حول الذكريات أتلمس آثار الحياة وأنا ميت القلب والروح ؟ ؟ اسمع يا صاحبى : ليس العدل والشرائع والقوانين والأديان نفسها تستطيع أن تشفى أدواء الناس ، إنما الذى يستطيعها هو الضمير ، . وسأنفذ أحكامه التى أرتضيها لنفسى حاكما محكوما .

استسلمنا كلانا للصمت : توهمت صاحبى المسكين لا يواصل رحلته إلى أميركا بل يترك الباخرة عند أول ميناء فى أوروبا يتطوع للحرب حتى الموت ، ولكن سرعان ما استلمح هذا الخاطر يتوارى فى طيات كلامى حتى قال لى ضاحكا :

أتحسب الموت يقضى على الموت ؟

قلت لا أفهم ماذا تعنى .

قال : ولا أنا أيضا أفهم كيف أقضى بيدى على حياة ألقيتها فى غيابات العدم ، بل أفهم أنى سأبقى فى فراغ يتساوى والعدم ، وسأستمهل الموت حتى ألقى فى كل ساعة ميتة تكفر عن جنايتى .

طفرت دمعة كبيرة من عينى المسكين فتلقاها بمنديله ، وعند ما هم بالنهوض تخاذل وخانته قواه ، تابطت ذراعه وأسندته على كتفى حتى بلغ غرفته فى الباخرة ، وإذ كنت عائداً لقيت الطلعة من الأمريكان وقد تهيبوا سؤالى وانصرفوا يتبع بعضهم بعضا .

غاية المرأة

صديقتى العزيزة نجلاء

... وأخيراً تحررت من قيود المدرسة ونجوت من مقاعد الطالبات وفروض المذاكرة والدرس. لقد نضوت الميدعة (المريلة) وحللت ضفائرى وصرت إلى ما كانت تتوق إليه نفسى وتهفو جوارحى.

ها أنا ذى، يا صديقتى، شبه سيدة فى البيت، تدربنى والدتى على إدارة المنزل وتدبيره، وتحببه إلى نفسى وتقول، إن شعور المرأة بالمسئولية عن بيتها يضارع شعور اللذة بالنجاح، وقالت لى عن الكتب التى لا أنفك أطالعها: يجب أن تكون القراءة تزجية فراغ لا ولعا يحول دون اضطلاع فتاة مثلى بادارة البيت، أو ينقص من معرفتها التامة بحسن تدبيره.

منذ تركت المدرسة ولزمت البيت، انقلبت أمى فصارت لى أختا، وتحولت رعايتها السابقة لى إلى صداقة فيها حنان وعطف، يحدوها إليها رجاء وأمل. كذلك أبى، فقد أخذت معاملته إياى تكاد تشعرنى بأنى دون إخوتى الأثيرة عنده بالرعاية والعطف، لم يعد يضن علىّ بشىء أشتهيه، وكثيرا ما كانت تضطره أمى إلى قبض يده عنها ليبسطها بسخاء لشراء ما تحتاجه فتاة مثلى لا مندوحة لها من الظهور فى المجتمع بالمظهر اللائق بحياتها ومستقبلها.

انتعلت لأول مرة حذاء بكعب عال ففرحت، ولما ألبستنى أمي

فستاناً من الحرير قصير الأكمام ، واسع فتحة الصدر ، كدت أطير من السرور ، لقد تعثرت بأذيال الخجل حينما سمحت لى بدخول الصالون أشاركها فى استقبال الزائرات من صديقاتها فى اليوم المحدد للاستقبال ، وكاد يرتج علىّ إذا سئلت فى أمر من الأمور .

كنت ألتفت بوعى إلى أحاديث أولئك السيدات وهى لا تخرج عن الكلام فى الأزياء الحديثة ، وعمن يخطب بناتهن والمساومة فى البائنة ، وكذلك فيما يقال ويحدث فى صالونات لا رغبة لصاحباتها إلا فى لعب البوكر والبريدج ، أما أمى فقد قالت لى إنه لا شأن لنا بأمثال هذه الصالونات الخاصة بسيدات ثريات يحاربن البطر بقتل الوقت باللعب والمقامرة ، ولا يأبهن بشئون أخرى فى الحياة .

ذهبت فى صحبة والدىّ إلى النادى ، ولقد دهشت ساعة رأيت قاعاته والناس فيها بين قائم وقاعد ، وتبدلت دهشتى بفرح ، وشعرت بالزهو عند ما استقبلنى الناس من معارف والدى استقبال الحفىّ بالجمال !!

النادى ؟ آه يا صديقتى من جلال النادى ، أنوار ساطعة تضىء قاعات فسيحة ، وأبهاء واسعة ، وغرف عديدة مفروشة بالطنافس تزين جدرانها صور زيتية فيها الرائع من الفن ، وفيها العادى الرخيص ، والقاعات تضم طوائف من الناس فيهم الشاب والكهل والشيخ من رجال وسيدات ، أما الآنسات والسيدات اللواتى رأيتهن فكن يرتدين أفخر الملابس ويتزينّ أجمل زينة كأنهن فى حفلة عرس !

ورأيت فى النادى شبيبة من فتيان وفتيات ينتحون ناحيات هنا وهناك

و يؤلفون حلقات للثرثرة والضحك ، هؤلاء هم الذين احتفوا بى وأنزلونى بينهم منزلة القرب الحبيب الجميل .

هل أنا جميلة حقا يا صديقتى ؟ ما هو الجمال ؟ هل المسحوق الأبيض وقد طليت به وجهى ، والكحل كحلت به جفونى وأهدابها ، والأحمر صبغت به شفتى وأظافرى ، هو الجمال الذى استرعى انتباه الناس فقالوا إنى جميلة ؟ ! !

لم يعد ذلك الميل الملحاح إلى أمسيات أقضيها عند الصديقات الزميلات ، ولا تلك اللهفة فى الحديث عن المدرسة والمدرسات والثرثرة سراً فيما كانت تصبو إليه نفوسنا ، بل صار يلذ لى أن أرغب إلى أمى فى الذهاب إلى هذا النادى الذى اتخذته طائفة من علية قومنا مثابة لاجتماعاتها وتسليتها ، ولتقريب العائلات المتناثرة فى المدينة الواسعة ، ومما أعجبنى فى هذا النادى وجعله حبيبا إلىّ ، أنى كنت أرى فيه الجماعات والعائلات والشبيبة من فتيان وفتيات يتعارفون بدون ما كلفة ولا تصنع ، ويندمجون كأنهم وحدة مؤتلفة منسجمة ، وكان يروق لى بوجه خاص ، وأفضله على الكثير من الصالونات العائلية لأنى كنت أسمع فيه ما تستريح إلى سماعه نفسى من ثناء يفيضه الناس علىّ إفاضة الكريم، ولعل أطيب الثناء وأعذبه هو ذاك الذى كنت أتقبله مغتبطة من الشيوخ أو الكهول الرصناء يصيغون عباراتهم صياغة شعرية تجعلنى أصدق ثناءهم فأزهى بنفسى وأفرح ، أما ثناء الشبان فقد كنت لا أستسيغه لخلوه من حرارة الشوق ، تلك التى كنت أحس وهجها فى كلمات الشيوخ ولأنه

ينصب علىّ انصبابا، ولكنهم برغم ذلك كانوا يحومون حولى ويتوددون إلىّ.

أكاد أتيه عجبا بنفسى ، وخُيَلاء بجمالى ، لأن والدىّ يطلقان لى العنان فى ميدان الحرية ولا يقيداننى إلا بفروض اجتماعية ، والناس من ناحية أخرى يضفون علىّ من الثناء ما يستفز غرورى ويدغدغ كبريائى .

أجل يا صديقتى لقد أخذت أحس بالكبرياء وأتشبث بأهدابها ، وقد رأيت عشرات من الشبان يتزاحمون حولى ويتسابقون إلى مراقصتى، ولقد سمعت شهقات الإعجاب وكلاما عذبا حلواً لم أسمع مثله من قبل ، ورأيت عيونا وقلوبا تحوط بى من كل جانب ، فكنت أبادلها خلسة نظرات العين والقلب .

لقد أحسست بواجب جديد لا محيد لى من فرضه على نفسى فرضاً حتمياً ، مناعة خلقية أقاوم بها التصدى ، وذهن أمحص فيه أقوالا أسمعها فلا أجيب عليها ، وأخرى أسمعها وكأنى ما سمعتها ، وثالثة يحسن أن يكون جوابى عليها ابتسامة عابرة ، ولكنى عدا ذلك سعيدة يا صديقتى ، وأية سعادة فى الحياة تماثل شعور فتاة مثلى ترى اهتمام الناس بها ؟ قال لى شاب كان يراقصنى أن رأسى تكاد تدفعه إلى الانفلات من القيود والانسياق مع الرغبة وهمّ بادناء شفتيه .

أبعدت عنقى لأنى تعلمت من الراهبات أن القبلات إن لم تكن مقدسة فهى محرّمة .

قولى لى يا صديقتى ما هى قيود الشاب ؟ وما هو الانسياق مع الرغبة ومتى تكون القبلات مقدسة وغير مقدسة ؟

لقد تحاشيت سؤال أمي عن معانى « القيود والانسياق » وعن معنى الحلال والحرام فى القبلات ؛ فعمدت إلى معجم اللغة أنقب عن تفسير لها، وإذا بها تزيد ما بى من عىّ عن الإدراك ، وإنى لأحس فى قرارة نفسى بأن معانيها ـ من غير شك ـ غير تلك التفسيرات والشروح الجامدة على الورق فى الكتب .

يا لله مما بى من شوق ملح إلى معرفة ماذا كان يعنى ذلك الشاب الجرىء الذى صرت أتجنبه تفاديا من جرأته الخطرة ، وأخذ هو يتجافانى وقد رمانى بالصلف والغباء ، ولكنك أنت يا صديقتى ، سترضين رغبتى وتشبعينها فى المعرفة أليس كذلك ؟

يقول أولئك الشبان إنى جميلة وفاتنة ، فما دمت فاتنة وجميلة كما يدعون فلماذا لا أجد فيهم جمالا وفتنة ؟

لى الله من فتاة غرة ، قلت إنى لا أجد جمالا وفتنة فى أولئك الشبان ، إنما أعنى بأنى لم أحس بانجذاب إلى واحد منهم أو انعطاف على واحد بالذات ، إنما شعرت بتباين فى رواهم وتفاوت فى نكهاتهم ، فبينما كنت مثلا أتنسم هذا فأنجذب إليه وقت الرقص ، كنت أنفر من ذاك وأتباعد عنه ، ولم أشعر بحالة وسط بين النفور الكريه والانتعاش الشهى ! ! .

وأنت يا صديقتى العزيزة ، ما هى أخبارك الخاصة ، هل وجدت فوارق بين حياة المدرسة وحياة البيت والمجتمع ؟ أما أنا فقد كنت أتوقع

حياة خارج المدرسة قريبة من حياة عرفنا أوصافها فى روايات قرأناها سوية فى خلسة من الرقيبات . . .

أنيسة

— ٣ —

عزيزتى نجلاء . . .

سرنى ما قرأته فى كتابك من أخبارك الخاصة ، وحمدت إليك الشرح المفصل لما كنت طلبته منك ، وقد فهمت معناه ووعيته كل الوعى ، وبهذه المناسبة أقول لك إنى أخذت أفرّق بين شاب وآخر ، وأميز ما بين الواحد والثانى ، لا من حيث المظهر والهيئة ، بل من حيث تباين الرغبات وتناقض المآرب وكيفية العرض .

عرفت شبانا أقوياء التركيب ، عراض الجسوم ، تزينهم خشونة الرجال ؛ إلا أن نفوسهم ما برحت تعوم فى الطفولة وتسبح فى الضحل من الحداثة كصغار السمك ، وعرفت سواهم ممن يحلو لهم مباراة الفتيات فى الزينة ومسابقتهن فى أناقة الهندام ومجاراتنا فى التبرج أيضا ، لم أكن أتبرم بهم لشعور داخلى بتماثل غرائزنا ! ! ولعل أسخف من عرفت من هؤلاء الشبان الذين لا أعرف كيف أسميهم ، بل أصفهم بأنهم أدنى إلى النساء وأبعد عن الرجال ، شبانا يطلقون شعورهم ويفتنون فى تجعيدها ، يتميعون فى كلامهم ويترققون ، لكل كلمة عندهم إشارة خاصة ، ولكل عبارة حركة بالعنق أو ابتسامة أو غمزة ، هؤلاء يدعون أنهم من أرباب الفن والفلسفة !.

وعرفت منهم من دأبه التعالى على الفتيات والحط من أقدارهن ، والاعتزاز بقوته على ضعفهن ، لزعم خاطئ متداول بأن الفتيات أقل وعيا ، وأوضع مكانة ، وأحط عقلا من الفتيان وهم بهذا الباطل يظهرون ، إلا أنى أوثرهم بقسط من احترام لا يستأهل جزءاً منه أولئك المتفننون المتفلسفون .

وعرفت فى أكثرهم حالة يعجزنى تسميتها ووصفها وأظنها انفعالا داخلياً ينتاب الشاب فيجعله حيال الفتاة يتحول بلحظة واحدة وينحرف عن خشونة الرجل المستحبة إلى نعومة فيها استعطاف وتوسل مستحبان أيضاً لا تقلل هذه ولا تلك من صفات رجولته .

كنت ذات مساء جالسة مع والدىّ وصحبهما من أعضاء النادى ، فإذا بشاب بادى النضارة تقدم منا فحيا بانحناءة واقترب منى يطلب مراقصتى ، لم أتردد ولم أستمهله لحظة واحدة ، بل لبيت دعوته برغم أنى لا أعرفه ولا أحسب أنى رأيته قبل تلك الساعة ، ونهضت دون أن أستأذن والدىّ واندفعت أتقدمه إلى ساحة الرقص .

لقيت نفسى مغمورة بصدر هذا الرجل ، اتكأ باطمئنان على ذراعه المتينة ، رفعت رأسى خلسة لأرى أى رجل هذا الذى غمرنى فى عبابه ، فرأيت وجهاً حسن القسمات ، وعينين لامعتين فى سواد ، وأبصرت وثاقة فى المفصل ، وقوى فى التركيب ، وبالجملة رجولة باتمة واضحة المظهر ، ولقد أدركت ببداهة الغريزة سبب انصياعى لإرادته الآمرة وسلطانه الجبار ، كما أدركت معنى الغبطة التى ساورتنى فى رضاى المطلق عن قهره إياى بقوة إرادته .

أخذت أراقب تنقلات خطواته واتزان توقيعاتها ، وهو ينحرف بى إلى اليمين أو اليسار ، أو يتقدم و يتأخر ، فإذا بها كأنها تبصم الأرض بصما بدون عنف، كما رأيتنى أوازن بين الرصانة والميوعة ، ميوعة أولئك الشبان الأغرار الذين ينافسون الأنثى فى إبراز أنوثتها ، زاهدين فى الرزانة وهى زينة الرجل، رغبة فى التظرف والتأنث ، وهكذا كنت أنقل خطاى نقلا آلياً لأنى كنت منجذبة إلى هـــذا الرجل الطارئ الغريب ، وعند ما انحبست أصوات الموسيقى وانفرط عقد الراقصين سألنى عن اسمى، فأجبته وأنا أحس برعشة اعترتنى ورهبة غشيتنى لم أحس بمثلهما من قبل ، ولما رغب إلىّ بلهجة التوكيد ، أن نلتقى ليلة الأحد التالى فى النادى أجبته بتوكيد حازم بأنى سأكون طوع إرادته .

لم أراقص سواه فى تلك الليلة ، ولم أسمع منه وقد حان وقت العودة إلى البيت ، سوى كلمة شكر على ما أدخلته من سرور على قلبه .

آه لو علم يا صديقتى العزيزة كم كنت مسرورة ومغتبطة ومطمئنة من مراقصته ، وكم تمنيت أن أكون البادئة بالشكر ، ولكنى راعيت آداب السكوت وصرت أردد ، فى دخيلة نفسى ، كلمات شكره إياى وأتمتم بها كأنها صلوات لدنية توحى بالأمل والسعادة .

عدت مع والدىّ إلى البيت ولما آويت على غرفتى وخلوت بنفسى أخذت أرقص بأجنحة من خيالى ، أتمايل وأتماوج كأنى مدفوعة بدوافع داخلية رفيقة نشوى . . . . . ارتميت على مقعد وأخذت رأسى بيدى ، وذهبت فى ذهول بعيد المدى ، واسع الأرجاء كأنه والفراغ سواء .

لم تكن أرجائى التى طفت بها فارغة خاوية كما قلت ، بل كنت بذاتى أنا الفراغ الخاوى من الرغبة الخالى من القصد ، وما كنت فى الحقيقة سوى نفس تفتحت للحياة وهى تجهل مآرب الحياة وغاياتها .

نضوت ثيابى ، وتوسدت فراشى ؛ أطفأت المصباح وأغمضت جفونى ، تنبهت فرأيت شماريخ سحب تمتد فى سماء فكرى ، وقد لمحت من خلال ما تلبد فيها من غيوم أشـــباحا للراقصين لم أتبين منها سوى صورة ذلك الشاب الذى فاتنى السؤال عن اسمه كما سألنى هو عن اسمى ؛ أجل يا صديقتى . لقد رأيت صورته ماثلة أمامى ، مسندة الخد على وسادتى ، ولمست بالوهم شعره الكثيف الخشن ، وسمعت وسوسة الوسادة كأنها تحاول الهمس فى أذنى . ليس لى عهد فى همس الوسائد ، ولا فى دغدغة الفراش ، ولكنى أحسست كأن لهذه الأشياء شفاهاً ريانة ملتهبة تقبل بشوق وحنان فنمت على قبلات من الوهم اللذيذ والفتنة الشائعة فىّ . . . . .

لم أستقبل فجر اليوم التالى كعادتى ، وأقبل الضحى ولما أبرح سريرى بعد . . . انصرم النهار ، وكنت فى غضونه أترنح بين انفعالين ذاتيين جد متناقضين ، انفعال يقذف بى بعيدا عن نفسى فأستسلم على غير وعى إلى الذهول والسهوم كأنى قوقعة منكمشة داخل صدفتها ، وانفعال آخر يلقى بى فى حيّز الأمر الواقع المادى المحسوس فأرقص مع من أراه يرقص طربا حولى ، وكان كل شىء يطرب ويرقص معى .

أخذت أعد أيام الأسبوع بالساعات والدقائق أستحثها على السرعة ولو خالفت الزمان فى نظامه لتصل طفرة إلى ليلة الميعاد .

فى عشية اليوم الموعود ، قمت إلى خزانة ثيابى وقد أترعها والدىّ بالمستحدث المبتكر فى الأزياء فاصطفيت ثوبا أزرق صافيا كزرقة السماء فلبسته قبل أن أصفف شعرى وأصلح زينتى .

رأيت فى صفاء لون الثوب ما جعلنى أفطن إلى أنى أهيأ جواً هادئاً بيد أن نفسى تثب وتتطلع إلى حركة حياة غير هادئة ولا ساكنة .

نضوت الثوب الأزرق الصافى بنزوة وحدّة وارتديت ثوبا زاهر اللون كحمرة الشفق .

صففت شعرى ، وجملت وجهى فجملته أدنى إلى الطبيعة فى مستهل الربيع ، وأبعد من الفن المجتلب ، وزينت صدرى بزهرات بيضاء . ألقيت نظرة أخيرة إلى المرآة ، وإذا بى ألزم الوقوف قبالتها وأسأل نفسى . هل ترانى أروق فى عينيه . . . ؟

لقد أجفلنى سؤالى ، فرجف قلبى وكدت أبكى !!! ولكنى تداركت الأمر وتساءلت مرة أخرى : ألست أنا السائلة ؟ ألست أنا المسئولة ؟ آه يا إلهى بماذا أجيب نفسى ؟ ؟ ! !

صرخت متأوهة من هذه الخواطر المضطربة والأفكار المتداعية وقد تلوّنت بلحظة واحدة بكل لون من ألوان الأشياء وأضدادها ، وقد انسرح فكرى وغرق ثانية فى اللاشىء .

ماذا يجدى يا صديقتى الانسراح فى الفراغ إذا ارتكز الفكر فى دائرة

ضيقة لا يتخطاها ؟ لقد وقفت وخيل إلى أنى لن أتحول عن الوقوف عند هاتيك النقطة حتى تجيبنى نفسى جوابا يطمئنها بأنى سوف أرضى ذلك الشاب المجهول الذى ينتظرنى .

قلت أخاطب نفسى : لقد شعرت بنظراته تخترق حجب نفسى فتنفتح له أبوابها حتى مغاليق قلبى ، فهل تراه أبصر استسلامى الراضى فأدرك خطأ أو استنتج أنه الترامى المطلق فى سلطان الرجل وأنه الجاذبية الطبيعية التى أخذت بها ؟ هل تعنى نظراته تلك غير التفرّس والتثبت ؟ وهل يتقصى ويتثبت إنسان بغير دوافع من الرغبة ؟ وهل لهذا الشاب رغبة فى غير تلك التى يختلج لها وجدانى ؟ ولو لم أرقه هل كان راقنى ؟ ؟ إذن لا بدّ أنى أروقه ! ! !

فى هذه اللحظة التى ثبت فيها إلى صوابى ، فى هذه اللحظة يا صديقتى العزيزة دخلت أمى غرفتى فلقيتنى جالسة أسند خدىّ بكفى ، لقد أحست بأن رأسى مثقل ينوء بما يصطخب بداخله ، وسرعان ما وضعت يدها على رأسى ومسحت بكفها شعرى حتى نهضت من مكانى وأنا أضحك وأبكى فى آن واحد .

أخذتنى أمى الحبيبة بين ذراعيها وضمتنى برفق كأنها مواسية وهى تعلم حق العلم أن النفس الجياشة هى التى تضحك وتبكى ، ولكن ماذا يعنى البكاء ؟ وماذا يعنى الضحك فى مثل هذا الحال ؟ هل يعنيان غير الأمل الزاهر بما هو مقبل أو بما هو مفروض أنه مقبل سعيد ؟ ؟

كفكفت دموعى ، وأصلحت ما انساح من سواد الكحل على

خدى . لم أكذب على أمى حين عزوت البكاء والضحك إلى حالة نفسانية طارئة ، ولم أتعمد المغالطة حين قلت لها إنى لا أعرف بالتحديد ما بى ولكنك أنت يا صديقتى العزيزة ، تدركين الإدراك كله معانى بكائى وضحكى ، وفرحى وذهولى .

جلست مع والدتى فى إحدى قاعات النادى . لست أدرى سبباً لانزوائنا فى تلك القاعة البعيدة عن حلبة الرقص ، ولكنى أدركت سرّ هذا التدبير الحكيم الذى دبّره والدى حين أطل علينا الشاب المنتظر يصحب والدته العجوز وشقيقته وقد كانت قريبة الشبه به .

كاد يقفز قلبى حين رأيت هذه الأم وقد كلل الشيب رأسها ، ولم يسترع انتباهى فى أخته سوى أناقتها فى هندامها ونظراتها الفاحصة ، أما هو فقد كان مثالاً للجد والرصانة .

لا ترمينى بالتطرف إذا اعترفت لك يا صديقتى العزيزة بما كان يخامرنى فى تلك اللحظة فاليك وحدك أقول : وددت أن أتقدم ، أنا الفتاة لطلب يد هذا الشاب فأسبقه إلى حق الأول فى حياتى وأكون البادئة فى طبع قبلة الخطوبة على جبينه ولكن . . . . . ولكن العادات والتقاليد الموروثة جعلت والدته وشقيقته تنفردان بوالدى للمداولة بأمر زواجنا ! ! .

أما خطيبى فقد أخذنى من يدى ومشينا إلى ساحة الرقص ، كنت أشعر ساعتئذٍ أنى أجس الأرض وأطأها برفق وتيه ، وأزهو بكبرياء على الجمع الراقص وهو يتحرك أمامى كالأشباح .

قال لى ونحن نرقص « أتمنى أن تكونى لى خير زوجة ، أما أنا فسأكون لك زوجا حبيباً وسنداً قويا فما قولك » .

لم أجبه على قوله هذا المفرغ بقالب فيه الكثير من معانى الرجاء والظفر بسوى نظرة صامتة من أبسط معانيها الرضى المطلق . ولما طلب منى أن أجيب بنعم أولا قلت : « أما (نعم) فأقولها لك بفرح ورضا ، وأما كلمة (لا) الحازمة فهى لأبى وأمى . . . . . .

أنيسة

— ٣ —

عزيزتى نجلاء :

لقد أطلت عليك سكوتى يا صديقتى العزيزة . « كم من مرة حاولت انتهاز الفنيهة القصيرة لأخلو بنفسى فأكتب إليك . أو بعبارة أصح أصور لك حالى عقب خطوبتى تصويراً واقعياً ، ولكن الطوائل النفسانية من متولدات الساعة كانت تحول دون تنفيذ رغبتى ، وكثيراً ما لجّ بى وجدانى ، وجاشت عواطفى ، فكنت أحس إحساس الواثق بأنك أنت المنقذ الوحيد يرفّه عنى لواعجى ويهدئ من حدة انفعالى فى الغبطة ، وللغبطة يا صديقتى بحار من السعادة الروحية بعيدة الغور سحيقة القرار ، غير أن الحواجز التى أحطت بها ذهنى ، والقيود التى قيدت بها تفكيرى ، جعلتنى شبه محتجزة ضمن نطاق ثابت الحدود لم أحاول قط تخطيه أو الإفلات منه .

ألبسنى خطيبى خاتما من معدن البلاتين محلى بالماس الدقيق وقبّل

جبينى ، وأعقبته أمه فألبستنى خاتما مرصعاً بحجر من الماس الأزرق كبير الحجم وقبلتنى ، وقد حاولت أمى أن تزغرد فخنقتها دموعها .

انهالت على قبلات المهنئين والمهنئات فكنت أتقبلها بالشكر والابتسام والدعاء ، ولكن ذهنى قد انصرف ، فى تلك اللحظة ، إلى شىء واحد ، إلى أمر بسيط أقوله لك أنت يا صديقتى العزيزة . أتدرين ما هو ذلك الأمر البسيط ؟ ألا تضحكين منى إذا اعترفت لك به ؟ ؟ !

آه ما ألذ الاعتراف والإفضاء بسريرة النفس . لقد ذهلت ساعة قبّلنى خطيبى بعيد إلباسى خاتم الخطوبة ، ولم يكن مبعث ذهولى هو الشعور بمسئولية الحياة الزوجيـــــة تحيط بى كما أحاط الخاتم بنصرى ، ولا بالفرحة السعيدة تغمرنى بالهناءة ، وقد أتممت حياة إنسانية وأكملتها ، ولا باطمئنان واغتباط ساورانى عند ما رأيت كف خطيبى منبسطة قوية ، بل حينما لمستْ أصابعه الخشنة بنصرى الناعم الدقيق ، حينذاك أحسست بالشعور يتحول فجأة إلى نبضة عميقة هزتنى وراحت تنساب هادئة فى جوارحى ، وأخذت على فرط ما بها من لذاذات ، تتضاءل وتفنى فى فضاء ذياك الشعور السرّى العظيم ؟ ! !

ابتسمت لوالدى ، وكان بجانبى ، ابتسامة الشكر على ما عاناه من مشاق الأبوة نحو فتاته وقد طرح مسئوليتها على منكبَىْ رجل كفء خليق بالاضطلاع بنصيبه من مسايرة الحياة والتساند معها فى تحقيق غايتها ، أما أمى فقد مزجتْ دموع فرحى بدموعها عند ما قبلتنى وكأنى بذلك تسلمت منها مقاليد « واجب الزوجة » .

كنت أقرأ فى ملامح الناس وتهانيهم معانى التوجيه إلى سبيل الزوجية ، وقد استنتجت من ثرثرة عجائز السيدات المهنئات أن خلف الزواج قيوداً ومسئوليات وواجبات .

مرت تلك الخواطر ببالى مروراً خاطفا ، ولم أحاول استمهال خاطرة واحدة منها ، لأنى من فرط اغتباطى ، كنت أتمنى لو فى وسعى الإعراب عن كل مابى لخطيبى الحبيب ، وقد تفتحت له جوارحى ، ولـكن هيهات فى موقفنا ذاك !

عرفتْ سريرة كل صديقة نحوى ، ولم أكن أعرف أن خطوبة فتاة مثلى تكون مثاراً لإطلاق ألسنة رفيقات المدرسة فى المناقب والمثالب وباعثاً على إعلان بعض تصرفات طفلية لى إبان أعوام الدراسة لتصل عن طريق الوشاية إلى مسمع والدة خطيبى .

أخذت والدتى تتشاغل فى البيت لتقلل من ترددنا على النادى ، وتنتحل الأعذار لإبعاد الزائرات رفيقاتى عنى لتترك لى متسعاً من الوقت أخلو به إلى خطيبى أتعرف سجاياه وخلائقه .

آه . . . لقد نسيت أن أسألك يا صديقتى العزيزة ، هل بك من الفضول يا ترى مثل ما عند بعض الصديقات وقد سألننى معنى الفارق فى طعم القبلات المقدسة وغير المقدسة ؟ ؟ أما إليك فأعترف بأن قبلات خطيبى ليست هى « مسكّن موضعى » كما قالت لى إحدى الرفيقات المداعبات ، إنما هى مسّة روح تسرى فى المسارب فترطب كل جزء من ذرة فى خلايا كيانى ، أما قبلاتى له فكانت تشعرنى بظمأ وقلة ارتواء .

صدفت عن النادى هربا من الناس ، وملات الرقص برغم ما فيه من مرح ومن راحة أجتليها على ذراع خطيبى ، وصرت تواقة إلى النزهات فى البرية الخضراء الطلق أستنشق الهواء ملء رئتى وأصمّ أذنى عن سماع همسات الناس لأبصر بعينى قلبى على غبش غروب الشمس وجه حبيبى وقد تحول إلى تكلام ثرثار بعد إذ كان صموتا ، يخاطب قلبى بعينيه الناعستين ! !

لى الله من طفلة هوجاء ! ! . . . أى هوج يا صديقتى ذاك الذى تعاملته فى السينما فتوهمت أن فى تطبيقه عمليا ما يجلب السرور إلى قلب خطيبى فجاءت النتيجة مقلوبة معكوسة .

مددت أناملى إلى شفتى خطيبى ليلثمها ، وكنت أتقنت تقليم أظافرى وتطييبها ، ولكنه لم يحجم عن تقبيلها ولم يقدم ، بل قبض عليها برفق ولثها فصارت كضمة من الزنبق (اليوسفى) ونظر إلىّ نظرة العاتب على اقتباسى غير المألوف من عاداتنا ، فلم يسعنى إلا التكفير عن هذه الهفوة بالانكباب على يده أقبلها ، وغدوت أنظر إلى زوجى العتيد نظرة الاحترام وأفوّقها على نظرة الحب .

لتطل يا عزيزتى أيام الخطوبة إلى شهور ، ولتدم زحمتها طويلا فإنى أكاد أحس بأنى تحولت إلى ما يسمونه « الحركة الدائمة » التى لاتفتر لحظة واحدة عن العمل ، وأخشى إن هى توقفت ، ولو لحظة واحدة ، أن أكون سبب الخلل أو العطب أو التعطيل .

أرجو ياصديقتى أن تبقى بعيدة عنى لأتمرس فى كتابة هذه الاعترافات

التي يمليها وجداني الفوّار رغم اشتياقي إلى رؤيتك واجتلاء رسوم فرحك مطبوعة على صفحات وجهك الوضاح .

لقد قال لي خطيبي الليلة : إن زواجنا سيكون بعد شهور قليلة ، كم أتمنى يا عزيزتي أن أبقى ظمأى لشهور طويلة لأن الظمأ زكاة للعقل والروح . . .

أنيسة

— ٤ —

يا نجلائي العزيزة :

صحيح ما قلته في كتابك ، إني كنت موزعة اللب ساعة الاحتفال يا كليلي ، ولكني كنت في ذات الوقت يقظة النفس خصوصاً حين قبلتك بعيد الانتهاء من هاتيك المراسيم التقليدية ، لقد كنت أشبه بالقابض زمام نفس لا هي بالجموح الشرود ، ولا هي بالطيّعة السلسلة القياد فكانت تتجلى صور المدعوين من أصدقاء وصديقات ومعارف أمام مرآة نفسي ، فأرى ماضي علاقتي بهم بكامل أوضاعها ، وصرت أهدم وأبني ، وأمحو وأثبت بطرفة عين ، مستقبل صلتي بأولئك الناس من أهل وأصدقاء ومعارف ، وما كدت أنتهي من ذلك العرض الغريب حتى لقيت صحائف سجلاتي مطموسة فيها أكثر أسماء من كنت أصادق وأعرف من الناس لأني صممت على أن أحيا لزوجي و بيتي .

اندفع بنا القطار نحو مصر العليا ، وقد بدأ سيره بطيئاً وئيداً كمن يقتلع قدميه من ثلج هشّ ، كانت الأرض منبسطة خضراء ، لا ربوة مرتفعة تحجب ما وراءها ، والنخيل على جانبى الطريق بقاماتها الباسقة ، وأغصانها المفروشة كمظلات فرعون ، عطال آذانها ، أى غير محلاة بأقراط البلح الأحمر القانى والأصفر الصافى . . . آه كم وددت لو يندفع القطار فيسابق الرياح فأصل وزوجى إلى «أسوان» نستطلع طلائع الحياة الجديدة .

. . . . . خرجت وزوجى فى نزهة إلى الشلال وسمعت هدير الماء ، وأصغيت إلى توقيعها الأجشّ على أوتار متزنة النبرات ، ورأيت ذراتها تتطاير وتتساقط كدموع الفرح ، وألوانها تتبدل وتتغير ، وحباتها تغرق وتطفو ، تتفرق وتتجمع ، تجهش فى البكاء وتقهقه ضاحكة ، ورأيتها بأم عينى تغفو وتنام على ساعد رجلها (النيل) العظيم ! ! !

ما أعظم شلالات الحياة الدافقة ، ما أروعها فى جلالها ووقارها ، ما أحلاها فى صفوها وسرورها ، ما أجملها فى غفوتها وصحوها ، ما أبدعها فى توفزها وتحفزها ، ما أبهاها فى شراستها وافتراسها ، آه ما أهناها فى نوم عميق تستعيد به القدرة من جديد لعراك جديد ، لقد أحسست بكل هذا الاندفاق الروحى فى شلالات الحياة مع زوجى الحبيب .

شهر واحد كأنه ساعة من صفوة الحياة ، ومتعة كاملة من اللذات ، وفيض شامل من الاطمئنان ، واستسلام مطلق للحب ، وهناءة هى السعادة فى كنف الرجل .

شهر واحد لم أنحرف فى غضونه عن محراب حبى ، أسجد بجوارحى وأصلى ، أتبتل بروحى وأتمتم . يا إلهى كيف يزعم الزاعمون أن السماء تشيح بوجهها ، وتوقر سمعها عن رؤية قلبى زوجين حبيبين وعن سماع همساتهما الزوجية ؟ محال على بارى الإنسان أن لا يرنو إلى قلب زوجين حبيبين . . . . .

⁂

. . . . وعدنا إلى بيتنا ، هذا الوكر الذى لم أره بعد وطالما حدثنى عنه زوجى الحبيب حديث المبتدع المفتن فى حبك حدث مفاجئ لطيف سار ، هذا العشّ الذى قال إننا سنبذر فيه بذور بقاء الحياة ، ونفرخ فيه أفراخ تسلسل الوجود ، هذا البيت الذى طالما غرقتْ فى تصوره أفكارى ، وانغمرت فى تكوينه تصوراتى وتخيلاتى وأحلامى .

لقد استقبلتنا حماتى عند بابه بابتسامة عريضة هادئة ، هى بسمة الأم المطمئنة وقد رأت ولدها رجلا فى بيته مع عروسه يمثل دوراً كان مثّله والده معها من قبل وقالت : لم أرد إخبار أحد من عائلتنا بعودتكما لتتمتعا بليلة هادئة بعد سفر طويل ، ثم عادت فقالت : لا يحق لعجوز مثلى أن تعكّر صفو عروسين فى وكر سعادتهما ، لقد هيأت لكما يا ولدىّ طعاماً و إنى عائدة إلى بيتى فأتمنى لكما ليلة سعيدة .

قبّلت حماتى كما لو كنت أقبل أمى ، وهكذا فعل زوجى وطفقنا نرتاد غرف البيت وكنت أخنق فى صدرى فرحة كبيرة بأحلام سعادة تحققت كادت تفضحها دموعى ، فلم يسعنى إلا تطويق زوجى بذراعى وقد

زيّن بيتنا بكل ما يروق ويفرح فتاة طموحة مثلى وزوده بكل ما يشعر بالراحة والبقاء مع مراعاة الذوق والفن .

أخذت أشعر بأنى سيدة فى بيتى ، وقد تمت سيادتى المطلقة عليه حينما أسلم إلىّ زوجى الحبيب عرشه وصولجانه .

آه يا صديقتى العزيزة . ما أحلى قيادة البيت وما أطيب ما تحسُّ امرأة رضا زوجها عنها لحسن إدارتها شئونه . لم أكن أغالى فى الترحاب بوالدى وإخوتى لئلا تشعر حماتى وابنتها بعدم المساواة فى الود بين الأهل ، وكنت حريصة على احترام حماتى حرصى على احترام ابنها زوجى الحبيب .

صرت ضيقة الصدر بلقاء الأصدقاء والصديقات وأخذت أقول : إنه خير لى أن أرمى بفريتة تجرح الود الاجتماعى من أن أصاب بجراح من ألسنة المجتمع وتقاليده المدخولة ، لأنى أضن بزوجى أن يكون نهباً لعيون الزائرات المتشوفات ، ومطمعاً لسالبى المال باليسر ، كذلك أبخل ببيتى أن يكون مباءة لصداقة ما كانت لتكون بين المتعارفين لولا حوافز من أطماع فى إشباع المعد ، وملء الجيوب وإطلاق الألسنة تلوغ فى القال والقيل ، وغدوت لا أحب سوى زوجى الحبيب ، وبيتى العزيز وأهلى الأوفياء . . . . . .

أنيسة

— ٥ —

نجلاء يا عزيزتى :

إنها لفرحة عظيمة و بشرى يطير لها اللب سرورا ، ومفاجأة لذيذة تلك التى حملها إلىّ البرق ينبئنى بزواجك ياصديقتى العزيزة ، لقد صرخت بدون وعى حين قرأت البرقية صرخة صادرة من أعماق نفسى استرعت انتباه زوجى فهرول نحوى يستطلع الخبر فإذا بى أتعلق بعنقه فأقبله ، ثم أتركه لأقفز وأدور حول ذاتى وأبكى وأضحك فى آن واحد والبرقية بيدى أطوحها فى الفضاء فرحا .

استوضحنى زوجى معنى هـــذه الفرحة المجنونة ، فقلت له وأنا أهلل وأمرح كالأطفال إنى مغتبطة بزواج صديقتى الوفية ، بزواجك أنت ياعزيزتى نجلاء فضمنى إلى صدره وقبلنى ثم أخذنى من يدى وأجلسنى على المقعد وسألنى إذا كنت سعيدة فى حياتى الزوجية .

لم أجب على ذاك السؤال بل أتيت بحركة أرضت زوجى فقبلنى ثانية وانصرف . آه لو كنت قريبة منك لقبلتك قبلة الإخلاص ، لأن ما من شىء يقرّ الفتاة فى قرارها الطبيعى سوى الزواج ، ولـكنت انهلت عليك بطوائف من الأسئلة والاستيضاحات .

أهنئك بجوارحى وأقول لم يبق من شئون الحياة شىء يكتمه بعضنا عن بعض ، كذلك لم يعـد ثمة حاجة إلى أمور نحس معرفتهـا ونشعر بها ونخجل من تسميتها بأسمائها الحقيقية . والآن أعود لحديثنا الأول .

عامان من حياة زواجنا ودعناهما منذ وقت قريب ، وقد أقام زوجى

عيداً لم أشأ إشراك غير أمه وابنتها ووالدى و إخوتى فيه لأنهم خير من يطرب لفرحنا و يغتبط بسعادتنا .

عامان ما أحلاهما من عامين ، كأنهما يا صديقتى نسخة أصيلة من الشهر الأول الذى صرفناه فى « أسوان » بل هما سلسلة محكمة الحلقات نجهل أين مبتداها ومنتهاها من هناءة وصفاء وحب .

عامان كأن كلمة « كن » المبدعة كانت على شفتى وقد أطلق الله العظيم سحرها فى فمى وسخّر زوجى بتنفيذ مأربى بحيث ما كنت أنطق بها حتى يحقق زوجى الحبيب رغباتى وفق إرادتى أو نزوتى بدون ما تردد أو تمهل .

عامان لم أشعر خلالهما بما يمس مزاجى أو يخدش حسى ولو من بعيد ، حتى خدم البيت اقتدوا بزوجى فصاروا لى أحباء يقومون بواجبهم كاملا إرضاء لى ، كذلك حماتى العزيزة وابنتها المحبوبة كانتا لى خلال العامين خير صديقتين عرفتا الفروض والواجبات ولقنتانى إياهما على أكمل أوضاعها الطبيعية البسيطة .

عامان ، برغم كمالهما فى ظواهر الصفاء و تمامهما فى هناءة الحياة ومتعها ، كانا ناقصين يا صديقتى العزيزة نقصاً كدّر حياتى ونغص علىّ صفوها ، وأزعم أن شعور زوجى الحبيب بهذا النقص لم يقل عن شعورى به ، ولكنه لم يظهر لى مطلقاً ما يومئ إلى ذلك النقص البغيض ، ويكفى أن أعترف لك بأن ذلك الشعور بالنقص كان فى كل شهر يداهمنى ، فكنت

أظن الظنون الطائشة بنفسى ، وأخمّن تخمينات قد يكون زوجى الحبيب بريئاً منها ؟!

كنت أترنح بين خاطرين متناقضين وشعورين متباينين ، خاطر الأنانية المتجسدة فى حب الذات المطلق ، وشعور بمساوقة الطبيعة ومجاراتها فى إتمام غايتها كما براها مبدعها فى الوجود للبقاء ، يضاف إلى جانب ذلك إحساس بأن فروض الحياة الزوجية قد بلغت بى أو بلغت بها ذروة الكمال وأصبح لا محيد عن تطور جديد ليس فى طاقتى إيجاده أو افتعاله ولكن لابد منه ؟ !!

لست ، يا صديقتى ، أسابق التطورات المرتقبة ولا أنا بمتهاونة بها غير متهيئة لاستقبالها ، ولكن الطبيعة ، ولكأنى بالطبيعة ضنينة ، فهى إن تكارمت وسخت تعود فتضنّ ، كأنها تزن ما تعطى وتقدر ما تهب من موجودات لا تقل مع الزمان ولا تزيد .

رأيت بيتى بعين الوهم كأنه الفردوس الذى طرد منه جدنا الأول ، فنفرت منه ، وباركت نفسى الأرض التى انطلق فيها آدم هائماً على وجهه مع أمنا حواء التى تحمل فى أحشائها للعالم الجديد آدم آخر .

ثم عدت فرأيت بعين الخيال فردوسى فيه جنات وفيه أنهر وفيه «آدمى» هو زوجى الحبيب واستيقنت أن لاحيّات فيه سواى ولا غوايات غير غواياتى . وفيه أيضاً شجرة واحدة غير مثمرة هى أنا المسكينة ، فبكيت خشية أن أكون تلك التينة التى لعنها المسيح لعقمها .

بهذا الشعور الهادئ ، الكامن تارة ، والثائر تارة أخرى استقبلت العام الثالث من زواجنا .

وحدث ذات يوم ذهبت فيه بصحبة حماتى نستروح فى إحدى الضواحى ، و بهذه المناسبة أقول لك يا صديقتى لو أن كل كنة أوسعت صدرها لحماتها كما أوسعت صدرى لحماتى ، أو لو أن كل حماة أطلقت كنتها على كل ما أطلعتنى عليه حماتى المحترمة ، لانتفى الخصام الطبيعى بينهما .

قالت لى مرة ما نصه : « لقد قمت بواجبى كزوجة وأم وربة بيت ، ولست أدرى على التحقيق إذا كنت أرضيت المرحوم زوجى فى حياته ، أما أنت فلم تشهد لى بعدُ بأنى أحسنت تربية ابنى زوجك الطبيب ، ولكنى أعرف أنى أنهيت فريضتى فى الحياة كما عرفت أنه صار لزاما علىّ أن أتنازل عن سيادة بيتى لتكونى أنت ربته ، وأن انحرف عن طريقك لأنه لابد لك من إطلاق سلطانك عليه وعلى من فيه .

لا أقول لك يا ابنتى ان الحماة أوفى دراية فى تدبير المنزل و إدارة شئونه عن كنتها ، بل أعترف أن تدريب الحماة كنتها إنما هو افتيات على الكنة وصدمة تشعرها بالنقص فى شخصيتها ، فالخير للكنة أن تغلط فتصحح أغلاطها المنزلية بنفسها ، من أن تنصحها حماتها ، أو تدلها على ما يجب عمله ، لأن وقع النصيحة أبلغ أثراً فى كرامة الكنة وأشد إيلاماً لنفسها من الغلط ذاته ، لذلك تركتك لنفسك ولشعورك الطيب فى حب زوجك وحب بيتك وحب نفسك »

أعود فأقول لك يا صديقتي العزيزة : حدث ذات يوم ذهبت فيه بصحبة حماتي إلى الضاحية نستروح ، فوقع نظري عفواً على شاب يلبس ثياب العمال ، ما كدت ألمح وجهه الشاحب وشعره الكستنائي الأشعث حتى قفز قلبي إلى عقلي يذكره برفيق طفولتي هو ذاك العامل بعينه الذي يتهادى من التعب في العمل .

تمهلت في مشيتي أراقب خطى هذا العامل التعبان ، وكأني كنت أراه يوم كنا طفلين نلعب سوية قرب باب بيتنا ، ولم أستفق من هذه الطارئة المباغتة إلا بعد فترة ليست بالوجيزة وقد ابتعد العامل بعيداً عني وغاب .

ما الذي جاء بي في تلك الساعة من النهار إلى تلك الضاحية ولم تطرقها قدماي من قبل ؟ هل أجد رفيق طفولتي إذا عدت في اليوم التالي ؟ هل أراه فأملأ عيني برؤياه وهل يشترك قلبي معي في رؤيته ؟ ! ! هل تراه يعرفني أم أن صـــورتي نصلت من ذاكرته ؟ هل يعود فيذكر ساعات طفولة بريئة سعيدة كنا نقطعها سوية في لعب صبياني ، تارة في خصام لا ينطوي على عداوة ، وتارة في وئام هو الطهر بعينه ؟ هل تراه يعود فيذكر كم كانت أطماعه أشعبية في الحصول على بعض ما معي من حلوى . وكم كان مبلغ سروري بتخصيصي إياه بقسم مما كانت تتلقاه به جيوبي من البيت فكان يؤثر انتزاعها مني غصباً عن إعطائه إياها كرماً مني ومنة عليه ؟

لقد كبر ذلك الطفل فصار شابا يعمل ويكافح ويجاهد فى سبيل الكسب ، وأزعم يا صديقتى أن الشاب لا يعمل ويكافح ويجاهد فى سبيل الكسب وإملاء المعدة فحسب ، فهو لا بد مسوق نحو « غاية » قد تكون فى الغالب مجهولة عند أكثر الناس وقد تكون معلومة الرسوم والحدود عند البعض من الناس ، ولا أحسب أن هذا الشاب بالذات إلا أنه يعمل ويكافح ويجاهد لأجل غاية معلومة لا تتخطى دائرة إشباع المعدة، وفى ظنى أن الغاية لا تكون تامة عند الشاب الحصيف إلا إذا اقترنت بوجود المتمم ، والمتمم ذاك لابد يكون فتاة تقع فى نفسه موقع الرضا ، فمن هى الفتاة يا ترى التى ستكون محط آمال رفيق طفولتى هذا ؟ ! ! !

أتراه يسعد بفتاته كما يسعد زوجى بى ، أم تشقى المسكينة كما أشقى أنا البائسة بغير حمل ؟ ! ! !

رأيته يتدثر ثياب العامل فهو لا بد شقى أو هو غير سعيد على الأقل ولكنه على كل حال خشن قاس . آه إنى لأذكر صلابته فى الطلب ، وصوته الآمر ، وإرادته النافذة ، ويده القوية تنتزع منى الحلوى التى كنت أخصه بها يوم كنا طفلين .

أى فارق عظيم بين زوجى يتطلع إلى همسة من رغبة تنطلق من بين شفتى فيحققها لى على الفور وقد تكون انفلتت عن نزوة لا عن رغبة ، وبين ذلك الطفل المفطور على إرادة آمرة يلين لها كل صلب متين فى خلق المرأة ؟ ! ! !

أين هذا الشاب العامل المسكين من زوجى الثرى الكريم ؟

أرى فى زوجى قوى الجسد والمال ، والمعرفة والجاه ، ولا أعرف فى هذا العامل سوى قوة واحدة جذابة أخاذة ، عرفتها فى طفولتى ، أيخلق بى أن أقارن وأوازن بينه و بين زوجى ؟ ! !

لقد رأيته اليوم فقط فكانت الرؤية هذه مثاراً لحساسية أجهلها ولم تتنبه فىّ تلك الحاسة الهجيعة اللبيدة إلا عند ما رأيته بعد طول غياب ، هل صار لزاماً علىّ أن أقارنه بزوجى وأفاضل بين الرجلين ؟ ! ! !

آه يا صديقتى العزيزة ، لقد مرت كل هاتيك الخواطر بذهنى مرور البرق اللامع فأضاءت جوانبا فى نفسى ما كنت أحسبها مظلمة أو عتمة كما رأيتها فى تلك اللحظة ، وقد أحسست كأن عينى حماتى أبصرت كل ما فى نفسى وجميع ما ارتسم فيها من خواطر ومرائى وأحاسيس فاستحييت من نفسى وخجلت من حماتى وأخذت أجمع خواطرى المفضوحة وألمها كما تلمّ سيدة ثيابها وقد لعب بها الريح وهى فى طريق عام .

عدت إلى البيت ولكنى لم أعد فيه سيدة عليه . بل غدوت كالداخل عن كل ما كان حوله إلا عن المقارنة والموازنة .

كنت أرى يا صديقتى رؤية المتحقق المتيقن أن رفيق طفولتى فى الدرك السحيق وزوجى فى القمة العالية ، وأرى نفسى بين هذا وذاك وأقول : هل فى المستطاع بلوغ الواحد دون الابتعاد عن الثانى ؟ كنت أقلب الطرف تارة بزهو وجشع صوب فوق وتارة برغبة وشهوة صوب تحت ولكنى على كل حال غدوت بعيدة عن الطرفين السحيقين .

آه كم من ساعات من النهار قطعتها فى قلق واضطراب كانا يتحولان فى حلم اليقظة إلى نشوة من الغبطة ! ! وكم من مرة مثّل لى الوهم صورا حية لأشياء مادية خالية من الحسن والحياة ولكن خيالى الجامح كان يجعل للمبرد أو المنشار أو الآلة التى يديرها رفيق طفولتى إبان عمله صورة آدمية لفتاة جميلة بالغة الفتنة والأنوثة المغرية بالدلال ، فتثور غيرتى وتضطرم رغباتى وتعتلج لواعجى لأنها أدنى إلى حاسته اللامسة منى أنا الرفيقة المنسية ! ! ! وكم من ساعات من الليل صرفتها بين ذراعى زوجى كأنى القمة الباردة أو الجثة الهامدة .

كم من مرة يا صديقتى ، جاهدت بعناء حتى أنتزع نفسى من برودة الخمول والجمود لأستجيب دعوة الحياة حين أكون بين ذراعى زوجى فكنت أخفق ، وقلما كنت أستطيع ذلك إلا بجهد انفعالى كنت أغلّب فيه الوهم على الحقيقة وأجعل من رفيق صباى صورة تتجسم فأتمثلها فى زوجى المسكين ، وكثيرا ما كان يغلبنى البكاء والنشيج .

ترى لو اخشوشن زوجى وتجافى ، وصلب واستقوى ، أعندها كنت ألين وأنصاع فترضى خليقتى النسوية الضعيفة ، أم ترانى أثور لكرامتى فأتوثب للخصام وأتحفز للشر لأنى ألفت التدليل ، أم ترانى أستسيم للارادة القوية الجبارة فترضى نحيزتى الفطرية فى الاستنامة لقوة الرجل الآمرة ؟ ؟ ؟

فى كلا الرجلين ، زوجى ورفيق صباى ، ذخيرة غنية من سعادة الحياة تكتمل الاكتمال المطلق إذا انصبت فى جوارحى ولكن . . .

أف من « لكن » هذه ، بل ألف أف لقوانين المجتمع ، وشرائع الإنسان ونواميسه وسننه وتقاليده ، لم لا نساير الطبيعة فى سننها البسيطة ؟ لم لا ننحرف عن سلوك طرائق افتعلتها أنانية الإنسان وأثرته ، والإنسان الآن أكثر وعياً من الطبيعة وأوفر إدراكا للذائذ الحياة ؟ ؟ ! !

أمثّل نفسى ، يا صديقتى ، وأنا على هذا الحال من القلق الموجع والاضطراب المضنى بإناء ملىء فوق مستوقد تعجّ فيه النار تغلى فيه المياه وتفور ، ولست أدرى متى تتبخر وتنشف ، ولا كيف ينفجر الإناء فتطفئ المياه الغاليةُ النيرانَ المتوقدة ! ! !

اعذرينى يا صديقتى إذا بحت لك بهذا السر الذى لم أخط نحوه خطوة واحدة ، وإنى لجزعة حقا خائفة من فقدان عرش سعادة أنا ربته العليا ، لأستبدله عن طياشة ورعَن بدرك فى شقاء أكون فيه ذليلة مهينة وقد لا أكون شيئاً أبداً .

أنقذينى يا صديقتى العزيزة من سقوط ليس الموت أهون منه إذا زلّت خطاى ، أنقذينى قبل أن يستشعر زوجى أو رفيق صباى فالبدار البدار . . . . . .

المسكينة

أنيسة

— ٦ —

لم تسعفنى قواى الخائرة ، وجسدى المريض ، ونفسى الخرعة القليلة الصبر ، وذهنى المشتت على قراءة كتابك يا صديقتى الوفية ، وقد وصلنى من نحو شهر أو نزيد قليلا ، ولم يطمئن ضميرى الى إعطائه لزوجى لمفضّه

ويتلو سطوره علىّ ، بل استسلمت للراحة المطلقة أجمع أعصابى المتخاذلة من حالة الاضطراب تلك التى وصفت لك البعض القليل من أعراضها فى كتابى السابق ، وللاستجمام الهادئ أمهد فيه للطبيعة المدبرة تهيئة مهدها ، ويخلق بى الآن السكوت عن كل ما جاء فى كتابك من تنبيه إلى أمور كنت غافلة عنها لأصف لك فعل العاصفة بى وقد ألقتنى فى تيه الصحراء السحيق ، تكتنفنى الرمال وقد غصت فى دهاسها وأسفتها الرياح فى وجهى.

لم يضق بيتى بى بل أنا ضقت به ، ولكنى أحكمت إقفال أبوابه النافذة فى وجهى ، وأخرست لسانى لئلا تبدر منه برغمى كلمة واحدة لايحتمل وجدانى محاسبة ضميرى عليها ، لقد صدمت والدتى المسكينة أشد الصدمات وأقساها حين كانت تلح فى استشارة طبيب أو تتودد فى السؤال والاستفسار عن حالى ، ولم أتورع عن إظهار التأفف من حماتى الطيبة القلب عند ما كانت تعزو ما بى اعتباطا إلى ما كانت تسميه « مقدمات » تبشر بالخير ، وقد اجترأت فأدخلت الحزن على نفس زوجى الحبيب لسبب تافه وقد ردعته عن الاستنجاد بالطبيب لأنى لا أعرف إذا كنت مريضة حقا أو غير مريضة ، وصرخت : أنا الشقية ، فى وجهه لهمسة همسها فى أذنى وقد التفت اليها بانتباه بعد حين ؟ ؟ !!

كنت أعزو ، فى بادئ البدء ، ما بى إلى تلك الاضطرابات التى انتابتنى عقب لقاء ذلك العامل المسكين الشاحب الوجه ، الهزيل الجسم فى الطريق ، وإلى اليقظة اللبيدة التى نشبت كالأفعى تنهشنى بأنياب الشهوة ، وإلى السأم من حالة رتيبة متتالية متتابعة فى نعم واحد كنت

فريستها أكثر من عامين سمعت فيها تمنيات كثيرة ورغبات شديدة تنبعث تارة من زوجى وتارة أخرى من حماتى وأمى ، ولكم سمعت أمثال هذه التمنيات والدعوات من الأهل والأقارب والمعارف ، وكلها كانت تجأر فى وجهى بأنى فى حاجة ملحة إلى تطور يؤكد وجود الحياة ببقائها وتسلسلها وما تليهما من مشوقات مغريات فى الحياة الزوجية ، ولكن أفى استطاعتى أن أكون غير متمنية مايتمنون أو غير راغبة فيما يرغبون ويشتهون؟ وهناك أسباب كثيرة يطول تعدادها لو ذكرتها بالتفصيل ، ولكن كتابك وسكوتى عن قراءته طوال هاتيك الأيام ، وما جاء فيه من بيانات وإيضاحات خبيثة لا يسطرها سوى قلم خبيث فى أصابعك ، نبهنى إلى يوم أعرفه وأشعر به قبل خمسة أيام من إقباله فى كل شهر فانتبهت إلى أنه أقبل وانصرف متسللا ثم انقضى شهران على انصرافه ، وأن ما بى من حالات طارئة بعضها الغثيان والقىء والهواع ، وبعضها الآخر الدوار والتخاذل والاحساس بالنعاس الثقيل على الجفون انما هى المقدمات السعيدة التى تنبأت بها حماتى الطيبة القلب ، وأن ما أحس به إن هو إلا الحدث المرتقب فيالفرحتى وسعادتى ، ولكن آه ياصديقتى العزيزة من شرور الانسان وآه من شرور المرأة وهى وليدة أفكارها وصنيعة بطالتها وفراغها وبطرها .

بودى أن أقول لك ياصديقتى العزيزة أن ليس أحسن الأزواج هو الزوج الذى يلبى كل رغبات زوجه ويرضى غرائزها فحسب ، بل هو الذى يعمل فى بيته عن وعى أو عن سليقة بديهية على إدخال ألوان جديدة وأشكال متنوعة على حياة زوجته ، وقد يستوى عند كل زوجة أن يكون

التنويع قبيحا أو جميلا ، حلوا أو مراً ، خشنا أو ناعما ، بشرط أن لا يمس زهوها ، أما الآن فياصديقتى العزيزة فقد نسيت كل شىء ، كل شىء نسيته ، ولا أريد العودة إليه ألبتة ، قد أنسى أن أعتذر إلى حماتى الطيبة القلب و إلى والدتى الحنونة وقد تنكرت لهما ، ولكنى لن أتوان عن همس كلمة واحدة فى أذن زوجى الحبيب ، وقد همستها أمس فى أذنه لأنصرف بعدها لا إلى حلم لذيذ ، بل إلى تفكير عميق فى حياة الجنين وقد استقر فى أحشائى .

« السعيدة »

أنيسة

الغريبة

نصوت ثيابي على عجل وألقيت بنفسى فى النيل ألاحق ذلك المخلوق التعس وقد رأيته يغطس فى الماء و يطفو على العباب كما رأيته يصارع التيار. ولقد قبضت على ذراعه وأخذت أجره إلى الشاطئ وقد كان فى حالة الإغماء ، ولما بلغت اليابسة كان التعس قد ابتلع مقدارا وافرا من الماء فأخذت أعالجه بالوسائل التى كنت تعلمتها وقتما تطوعت فى خدمة جمعية الاسعاف وقد نجحت فى إفراغها من جوفه ورد تنفسه إليه .

حملتنا سيارة إلى بيتى وهو قريب من النهر ، وقد دهش (محمد) بواب العمارة إذ رآنى أساعد رجلا ذاهلا فى ثياب مبللة على النزول والسير به متكئا على ذراعى ، وما عتم البواب وقد تبين ملامح الرجل أن صرخ سيدى صلاح ؟ سلامتك ياسيدى ، وأقبل يسنده معى .

لم أر رجلا أسود البشرة يلوّن الاضطراب وجهه قبل ذلك اليوم ، ولم أعهد نشاطا (بمحمد) البواب أو بأمثاله من أبناء جنسه البرابرة والخلاسيين الكسالى وقد رضوا الجلوس عند أبواب المنازل ليل نهار لا يريمون ، رأيته ينزع الثياب المبللة عن جسم سيده صلاح بخفة وهمة ، و يلبسه سواها من ملابسى ، و يوسده فراشى . ورأيته يضيف إلى فنجان الشاى قدرا وافرا من الكونياك ، لا أدرى كيف عرف مكانه فى البيت ، وأعطاه سيده وقد ألح عليه أن يتجرعه ، وما زال به حتى سقاه الشاى الممزوج .

كان القدر من الكونياك الذى شربه صلاح كافيا لتخديره ، فما

لبثت قواه أن تراخت وقد صارعت الموت بحكم حب البقاء وراح يغط فى نوم عميق .

قال : محمد ـ أيسمح سيدى باستدعاء زوجة صلاح أفندى فانى أعرف البيت الذى تقيم فيه وقد كنت بوابا له قبل مجيئى إلى هنا .

قلت وقد أحكمت دثار الراقد : من يكون سيدك صلاح هذا ؟

قال : ـ عرفته كاتبا فى متجر كبير، وهو حسن السمعة، هادئ الطبع ، قلّ ما كنت أراه يخالط الجيران أو يفتح باب داره للزائرين ، وعرفت فوق ذلك أنه ميسور الحال لا يطالبه خباز أو قصّاب بدين ، وقد كان ينقدنى أجر البيت فى اليوم الأول من كل شهر .

قلت : ـ خل عنك استدعاء زوجته الآن ولندعه يسترد قواه الخائرة .

* * *

نهض صلاح من الفراش بعد نومة طويلة عميقة وأخذ يتمطى ويفرك عينيه ويجيل بصره فى غرفة لا يعرفها ، وفى أثاث لم يألف رؤيته من قبل .

لم أتركه فى حيرته بل دفعت الباب ودخلت أحييه وأسأله عن راحته فابتدرنى بالسؤال :

— من أنت ياسيدى ، وأين أكون أنا ؟

— أنت فى بيتى ياصلاح بك وأرجو أن يكون النوم قد أعاد اليك الراحة .

قال وكأنه قد انتبه من غفلة — صحيح . . صحيح . . لقد كنت متعبا جدا ، وقد نمت طويلا ... ولكن ... ولكنى أين كنت ... وما الذى

جاء بى إلى هنا ... وأنت من تكون ؟ ورأيت عينيه تحدقان كأنهما تمعنان فى الرؤية .

فتحت النافذة المطلة على النيل وقد كانت الشمس شارفت على الغروب وبدت تجعدات المياه وتقلباتها كأنها خرزات ملونة بكل لون ، أو عقيق تتكسر عليه أضواء الشمس ، ودخل النسيم يحمل شذى الأشجار من ضفة النيل الثانية .

التفت صلاح إلى النهر ثم نظر إلىّ وقال : أنت الذى أنقذتنى من الغرق ياسيدى ، أليس كذلك ؟ هو أنت ولا شك الذى أعدتنى إلى حياة كنت أحسب أنى خلصت منها ونجوت من متاعبها وتبعاتها ، غفر الله لك وأخذ يبكى .

تركته يزرف الدمع يغسل به همومًا تراكمت فى صدره ويفرج كربه ، لقد أخذ المسكين رأسه بين كفيه وانخرط فى البكاء وقد بكى طويلا ...

دخل الخادم يحمل طبقًا من المرق ساخنا ، وقد فاحت رائحته وتصاعد دخانه .

قلت لصلاح أن يكف عن البكاء بعد أن أخفقت خطته وأضاع غرضه ، وأن يقبل على الطعام الذى لا بد منه ليكون إقباله من جديد على الكفاح فى الحياة أقوى وأجدى ، وأردفت الكلام بلهجة توكيدية حازمة : سيصبح شعورك بالحياة دقيقا ، ورغبتك فى السلطان عليها قوية شاملة .

نظر إلىّ ثم أقبل على المرق يحتسيه وهو صامت خافض الرأس ، وقد

أكل بشهية من كل ما تقدم له من طعام ، وغبّ ثلاث كوبات من النبيذ المعتق ما عتمت أن نفخت فيه روحا جديدا يتوثب وقال :

لقد أنقذتنى من موت رغبت فيه ، فصار لزاما عليك مؤازرتى وشدّ عضدى لأسير غير متسكع ولا متلكئ فى طريق الحياة .

قلت : سأكون عند حسن ظنك بى .

قال : لا تؤاخذنى ياسيدى وقد خاطبتك بلهجة الالزام ، إذ قد يكون حالك كحالى اليوم ، وقد يكون كحالى بالأمس عندما كنت أتمتع بنعمة القناعة بوظيفة كتابية ألفتها ومرنت رتابتها براتب كان يكفينى ويقينى ركوب الأخطار والمغامرات التجارية .

قلت : — إنى أملك من نعمة الله وخيراته ما يكفى لأن أمدّ اليك يد المؤازرة بقرض حسن أقرضك إياه تستعين به على كسب رزقك .

قال : حسن ما وعدت به وإنى سأمضى من توى ...

قلت : لمَ العجلة ياصاحبى ؟ تمهل فأنت ضيفى ، ولن أتركك تبرح دارى حتى أضع معك خطة لعملك الجديد تكون النهج القويم لحياتك الجديدة .

قال : خطتى الجديدة هى العودة إلى عملى ، أبتدئ حيث ظننت أنى انتهيت ، أما الآن فيخلق أن تعلم منى بواعث طابى الانتحار .

وقال : — كنت أعمل ياسيدى كاتبا فى متجر يملكه تاجر لم أر له نظيرا فى اعتصار قوى عماله ، ولا من هو أقدر منه على استغلالهم بالعمل المتواصل ولا يمكن أن يوجد من يجاريه فى سوء معاملة العاملين عنده ، وفى سلاطة

لسانه و إطالته فى شتمهم ، وقد كان فى الوقت نفسه أحسن الناس معاملة لعملائه وقصّاد متجره ، وأوفرهم أدبا وأحلاهم لسانا فى استقبالهم وتوديعهم، أما تصرف ذلك التاجر معى فقد كان يختلف عن تصرفه العنيف مع بقية عمال محله وكتابه ، والسبب الذى كان يحمله على الانحراف عن جانب طبعه إلى جانب تطبعه أنى كنت موكلا بضبط حسابات عملاء المتجر ومحاسبتهم مما كان يدعونى إلى التبسط فى الكلام معه و إلى إبداء الرأى فى حل مشكلات تقع دائما بين التاجر المقرض والعميل المقترض ، ولكنه ما كان يتوانى عن لومى وتعنيفى عندما نكون منفردين ، أو كلما شام منى تساهلا مع عملاء المحل أو تسامحا فى تأجيل دفع الأقساط الشهرية أو نزولا عن فوائد مركّبة .

كان ذلك التاجر ، وقد قبض الله روحه ، حديث الناس فى مجالسهم وأسطورته الخرافية التى تلبس ألف ثوب خلاف ثوبها الأصيل ، تدور على ألسنة فتيات يعدهن بلقاء العريس ، وشباب يغريهن بالحسان ، ورجال يستذلهم ببيع ما يحتاجون إليه من متجره بالتقسيط ، وسيدات محتشمات يراودهن فيتنازل لهن عن جزء مما له عليهن من دين متأخر الوفاء ، ولكنى ماسمعت فيما سمعت من نوادر هذه الأسطورة الخرافية التى كان يشترك كل الناس فى اختلاقها وتأليفها ، ما هو أدهى من حكايات كان يختلقها عامل من عمال ذلك المتجر ، ويتفنن فى إلباسها ثوب الحقيقة مذوّقا مزركشا ، ولم يكن له عمل فى المتجر سوى تلفيق هاتيك الحكايات وترويجها بين العمال ثم إذاعتها على العملاء من فتيات وعجائز.

لزمت عملى هذا زهاء عشرين سنة عند ذلك التاجر الذى لم ينفك يوما واحـدا عن لومى وتعنيفى سراً ، والاشادة جهرا بأصالة رأيى ومقدرتى على مداورة المشكلات وتصريفها فى أقوم السبل وأضمنها ، إلى أن وقعت الواقعة غير المنتظرة ، وحلت النكبة التى لا حيلة لى فى درئها ، ولا القدرة على دفعها ، وذلك أن ابن ذلك التاجر قد أراد لوالده الذى تقدمت به السن الراحة وكفّ اليد عن العمل .

لم تكن طرائق ترضى ذلك الشاب الغرّ الذى شب فلقى سبل حياته ممهدة مرتبة أحسن ترتيب ، وموارد خيرات أبيه منظمة أحسن تنظيم ، لم تكن طرائق المرنة اللينة فى مسايرة عملاء المحل لترضيه لأنه كان يأنف التعامل مع من يحيدون قيد شعرة عن طريق التمسك بالقول الصدق ، وعمن يخلفون الوعد ، وأخذ يرغمنى على إقامة القضايا على كل متأخر عن الوفاء ، ووقف حساب كل من يتلكأ فى دفع القسط الشهرى ، وإيقاع الحجز التحفظى على محتويات مسكن كل عميل لا يدفع ما عليه ، ولما أبديت إنكارى من تصرفات هـذا الشاب الذى حول مكتب التعامل الحسن فى متجر أبيه إلى مكتب قضايا ودعاوى ، طردنى من عملى ولم يشفع لى عنده رجاء أبيه الهرم الخرِف .

لم أحزن على ضياع عملى فى ذلك المتجر الذى ألفته وقد غدا قطعة من وجودى ولازمة من لوازم حياتى ، بل أحسست فى داخلى عزيمة توثبت وحيوية دفاعة إلى العمل الحر .

أى عمل حر أعالجه وقد مرنت وضع الأرقام العددية فى مواضعها ؟

كيف أخاطب الناس وقد تعودت التحايل مرة ، وتهديد العملاء مرة أخرى للحصول على جزء مما عليهم من دين ؟ أى عمل من الأعمال الحرة يساوى أو يضارع عملى المفقود وقد مارسته شطراً من حياة الشباب ؟

سمعت هاتفا داخليا يدعونى إلى الإقدام على أى عمل كان ، وشعرت بدافع يدفعنى إلى تحريك خطواتى إلى الأمام ، ولكن أين الأمام ذاك ؟ وكيف الاتجاه اليه ؟

ضممت المبلغ الزهيد الذى قبضته ثمنا لطردى من عملى إلى المبلغ الضئيل الذى ادخرته ليوم الكريهة ، فاذا بحاصل المجموعين قد ينفد بعد شهور أو بعد عام واحد فى حياة التقتير لو تعطلت عن العمل .

أخذت أعصر يانوخى وأمتحن عناصر حيويتى المدخرة أتلمس ميولها وأتعرف ما ترغب فيه أو تعرض عنه من الأعمال .

أوحت إلىّ تلك الحيوية الملعونة أن أخوض معترك الجهاد الوطنى حيث السبيل سهل منبسط للراغبين فى الكسب بدون عناء ، ولكن نفسى أبت علىّ أن أظهر مظهر البطل الوطنىّ المجاهد ، فى حين أمد يدى أقبض الأجر من أعداء الوطن أو تجار الأحزاب .

ما أشد ما كانت تتقارب أوجه الشبه بينى و بين إناء فوق مستوقد قد تتبخر المياه فيه وقد تتطفىء النار قبل أن ينضج منفى الاناء وليس فيه سوى الماء .

هكذا كان حالى ياسيدى عقب طردى من عملى فى الاضطراب وعدم الاستقرار ، ولكنى كنت أحسّ بالأمل يبتسم فى وجهى ، وبالعزيمة تدفع بى إلى العمل ، وبالحيوية تقول ها أنا ذى ..

جاء شقيق زوجتى لزيارتنا فلقينى غارقا فى تفكيرى كما وجد أخته فى همّ ووجوم .

قلت : من يكون شقيق زوجتك ذاك ؟

ذكر لى اسم نسيبه وقد كنت أعرفه مفراحا ممزاحا ظريف العشرة سخىّ الكف مسرافا ، يأخذ ما فى جيوب قومٍ ليعطيه آخرين .

فقلت : أذلك الماجن قريبك ؟

أجل ياسيدى ، و إنه ما كاد يدخل بيتنا و يعرف خبر ما حل بى من فقـــدان عملى حتى أقبل يضاحكنى هازئا بالوظيفة ساخراً ممن يؤجرون ذواتهم للعمل ، وقد مثلهم بالدابة التى تربط على الساقية وكل حظها من الحياة هو العلف فقط ، ومازال بى ينفّرنى من حياة المستخدمين ويرغبنى فى العمل الحر. وأخيراً عرض علىّ أن أعمل بالاشتراك معه فى شراء صفقات من السلع و بيعها فى السوق ، وقال إن فى إنجاز صفقة واحدة فى الشهر الواحد ربحاً يماثل الراتب المحدود لعدة شهور و يضمن الطمأنينة للعمل بتدبر وتعقل وحكمة . واستطرد يقول : من الخير أن نبدأ عملنا فى حيز ضيق يستغرق اليسير مما ندخر من المال ، وأن نتوسع فى العمل كلما استدعت الظروف واستوجب الحال .

ارتاحت نفسى لهذه المقـــدمة التى لا عيب فيها سوى مجانة بادية واستهتار ظاهر فى قول قائلها . ولما كنت مفطوراً على الرزانة والجد قلت أسأل قريبى أن يكف عن المزاح ، وسرعان ما تحول فى لحظة واحدة وقد أقسم على أنه يجدّ فيما يقول .

قلت وقد قطعت استطراده فى الحديث أسأله : ما هو مقدار معرفتك بقريبك وكيف كانت صلتك به ؟

— عرفته ياسيدى فى نادى الألعاب الرياضية وقد كان ذلك قبل عشرين عاما، وقد استرعى حديثه انتباهى فأحببت فيه الظرف وخفة الروح وحدة الذكاء وكياسة جذابة وسخاء ملموحا ، فما لبثنا أن تصادقنا ثم عرفت أخته فبنيت بها .

كانت صداقتى له خلال هاتيك الأعوام الطوال على أحسن ما يقدر الفضلاء معانى الصداقة والقرابة ، وكان بيتى كأنه بيت له ولزوجته وأولاده فى حين عقمت زوجتى ولم تنسل قط ولذلك لم أبرم به ولا بأولاده .

اتخذ نسيبى لحياته فلسفة خاصة عمادها الاستهتار والمجانة والاستهانة ، لا يأبه لشىء مهما جل أو اتضع ، ولا يلتفت إلى الناس مهما انتابهم أو نزل بهم من الأمور .

كان يملك قريبى عشرات أضعاف ما أملك ، ويربح فى الشهر الواحد مايعادل ربحى طوال عام كامل ، غير أنه مسرف متلاف ، تباريه زوجته الغنية فى التبذير والسفاهة ويشقى الأولاد بأبيهم وأمهم .

كان يسوء حاله فى المضاربات فيعجز عن شراء علبة سجائر ، ولا يأنف من مدّ يده يطلب منى خمسة قروش ثمنا للفائف التبغ ، وحين تقبل الدنيا عليه يقتنى خمس سيارات بدلاً من سيارة واحدة ، وكان فى حالتى الإدبار والإقبال ، يتقلب فى طبيعة الذل والاستخذاء الضاحكة ، والجبروت والفطرسة الساخرة .

كنت أنا وزوجتى نرثى لحاله ونتوجع لمآل أولاده ، ونفتح له ولأسرته بيتنا فى حالة إعساره ، أما هو فكان يتجاهل وجودنا أيام إيساره .

قلت : فلنعد إلى حديث التجارة .

قال :— إى والله ! لقد كاد الاستطراد فى الكلام وتيسيرك لى سبيل الاعتراف ، وهى وسيلة للترفيه عن النفس ، يقصيانى عن صميم الموضوع الذى حفزنى إلى اختزال طريق الحياة والهرب من نكبة أوقعنى قريبى بها .

قلت لك ياسيدى إن مقدمات العمل التى بسطها نسيبى قد استهوانى عرضها ، وتملكنى المشروع فأقبلت عليه ، فأخذنا نعمل ونربح ، والأرباح تنشط الذهن وتشحذ الهمة .

آنس نسيبى فىّ الاجتهاد والاقبال على العمل ، فارتأى أن يتركنى أعمل وحدى لينفرد هو إلى مضارباته ومشاريعه الكبيرة التى تتناسب مع أطماعه . رضيت بما ارتأى وفى نفسى طمع ورغبة فى الانفراد بالمكاسب وحدى .

ليس فى اللذات ياسيدى ما يضارع إشباع أطماع النفس ودغدغة الأنانية ، وكذلك كانت رغبتى فى استبقاء صلة الشركة مع نسيبى قائمة على تزويد أنانيتى من معارفه المكتسبة بالتجربة .

أخذت أعمل وحدى بحرص وخوف ، أحسب للأمر ألف حساب ، وأفرض له أسوأ الفروض لأتداركها قبل وقوعها ، غير أن حرصى ومخاوفى كانت محصورة إلى من كنت أتعامل معهم من التجار ، ولم يخطر لى على بال قط أن البلية ستنتابنى من الناحية الأمينة .

ما قطعت فى أمر قبل مشاورة نسيبى فيـــه ، وما عقدت صفقة لم أسترشده فيها . كنت أحوم حوله كفرخ الدجاج ، وكان يظللنى بجناح من النصيحة والرشاد .

زين لى مرة عقد صفقة ضخمة رابحة ، وما زال بى يقنعنى تارة ، ويحبب إلىّ الإقدام والجرأة تارة أخرى حتى استلنت ، فأقدمت والجزع يهدهدنى والاضطراب يساورنى ، ولم يرتح بالى وتسكن هواجسى إلا بعد أن بعت الصفقة التى لم أكن أملك ربع ثمنها وقد رضيت بالمكسب الضئيل لا عن قناعة بل عن خوف .

تؤخذ السمكة بالطعم ياسيدى ، وهكذا اصطادنى نسيبى بطعم أخفى صنارته بحذق وقد علقت بحلقى فكادت توردنى مورد الهلاك . عقد معى صفقة قبض ثمنها نقداً وعدا ، وقد بعتها لتاجر وقبضت منه ثمنها . ولما طالبت نسيبى بتسليمى ما باعه لى أخذ يماطل ويسوّف ، ويتحايل ويتهرب .

وقفت أتوسل اليه أن يعطينى ماباعنى أو يردّ المال الذى قبضه ، فأخذ يكلمنى بأنفة وغطرسة أثارتا أعصابى فكدت أنزع نزعة الشر ، ولكنى كظمت مابى وعدت أتضرع إليه أن ينقذنى من ورطتى . قال لى وهو يبتسم ابتسامة لا أدرى كيف اصطنعها « سوّف وماطل وتحايل وتهرّب مثلى من عميلك » .

قلت : «التجارة ثقة وشرف وأمانة يجب التمسك بها والمحافظة عليها» .

قال : « هذه نظريات جوفاء يتقول بها نظريون بلهاء أمثالك » .

قلت : « لا شأن لى بالأمور النظرية بل يجب أن أكون عمليا » وهددته بقبضة يدى .

استجار بالناس وألّبهم عَلَىّ ، ولم تنصفنى الشرطة منه بل صرفتنا برفق وملاطفة على غير طبيعتها داعيـــة إياى إلى مقاضاة خصمى فى المحكمة المدنية .

كيف تنصفنى المحكمة المدنية من متلاعب ماكر لا أملك سنداً ولا دليلا يثبت حقى عليه ؟ هل يسمع لى القاضى إذا قلت إن المتلاعب الماكر هو نسيبى ؟ أولا يضحك القاضى من سلامة طويتى لتعاملى مع القريب بغير حرص وحذر ؟ ثم بماذا أدافع عن نفسى أمام القاضى وقد بعت سلعة وقبضت الثمن وتعهدت بالتسليم ولم أف بالعهد ؟ يقال إن للمحاكم المختلطة ياسيدى سلطاناً عاتياً عتو الشهوة ، ولقضاتها أفواها بصق فيها الشيطان فصارت إذا هى حكمت فانما تحكم بالانتقام الذريع من الجانى وبما هو فوق العدل للمجنى عليه . فإذا صح ما يقوله الناس عن هذه المحاكم ووقفت أســـتمع إلى القاضى يحكم على بتسليم البضاعة التى بعتها أو رد الثمن الذى قبضته مضافا إليه مبلغ يتكافأ مع مااصطلح على تسميته «بالعطل والضرر» وأيضا رسوم القضية ، وأتعاب المحاماة ، أفلا تكون هى النازلة التى ستلازمنى حتى الوفاء! وإذا تعذر علىّ الوفاء فى حياتى فإنها تلاحق أولادى فيما يرثونه بعد موتى .

عدت أطرق باب نسيبى ، فصدتنى زوجته وطردنى أولاده كأنى مستجدٍ ملحاح . استنجدت بالأهل والأقرباء أطلب وساطتهم عند نسيبى ، فلم تجدنى

وساطتهم بشيء . احتارت المسكينة زوجتى بين زوجها المغدور وأخيها الغادر لوقوعها بين مطرقة الزوج وسندان الأخ .

أقبل محضر المحكمة المختلطة يرافقه شرطى ووقّع الحجز على متجرى وهمّ أن يغلق بابه وختمه بالشمع ، وكاد يفعل لو لم ينبهنى أحد جيرانى إلى وجوب إرضاء المحضر حتى يسكت عن تعطيل عملى فى تجارتى ففعلت وأنا مستحى من نفسى !!

أسرعت فى الذهاب إلى التاجر الشارى أرد إليه ما قبضته منه ثمنا للبضاعة التى اشتراها فأبى إلا قبض المبلغ مضافا إليه ما يساوى الضرر الذى لحق به من جراء عجزى عن التسليم . وقد رضى على مضض بعد توسل واستعطاف أن يأخذ ماله .

ياللداهية التى دهتنى !!... ياللنكبة التى نكبتنى !! .. ياللجنون اعترانى حين مددت يدى إلى جيبى فلم أجد فيها حافظة النقود وقد ساط علىّ القدر الأعمى نشالا بارعا انتهز سهومى واضطرابى فنشلها دون أن أنتبه أو أعى .

ذهلت هنيهة ثم أخذت أدور حول نفسى ، أدس يدى فى جيوبى ، أتحسس صدرى ، أين المال! أريد ردّ المال إلى صاحبه ، وصرت أهذى كالمحموم وأتلفت كالملتاث الممرور .

ضحك التاجر منى وسخر من تمثيلى الاحتيال والنصب تمثيلا واقعيا ، فدفعنى خارج متجره لاعناً الساعة التى تدنست بها التجارة بنصابين محتالين أمثالى .

ياللهول من الذل ! ياللهول وقد توهمت أن العناية الالهية تخلت عنى وأن الله صب غضبه علىّ انتقاما منى للعشرات ممن أوقعت الحجز على مقتنياتهم بغير ما رحمة أو مبالاة حينما كنت كاتباً عاملا فى المتجر الذى طردت منه .

لم يبق ياسيدى ثمة مناص للهروب من النفس الحائرة الذليلة . لم يعد أمامى سوى ولوج باب الخلاص من البلبال والقلق والاضطراب والوجل والذل. لم يبق إلا أن أختزل طريق الحياة! فعمدت إلى النيل رب البركات والخيرات أكرع منه كؤوس الموت فى نخب الإخفاق فى الحياة .

⁂

انقضت ست سنوات على ذلك الحادث لم أر فى غضونها وجه الرجل ، ذاك الذى أدخلته دارى متخاذل القوى مستنداً على ذراعى وذراع (محمد) بواب العمارة ، وقد خرج منها منتصب القامة ، متين الإرادة ، صليب العزم ، تنبىء عضلات عنقه وقسمات وجهه بالتصميم على مكافحة الحياة والانتصار عليها . ولكنى كنت أتسقط أخباره من الأوساط التجارية ، وأراقب نجمه يتلألأ فى أندية المال ، وأفرح بسماع أطيب الحديث فى استقامته وحسن معاملته الناس .

نقل لى عنه أن التجارة استغرقته ، وحب الكسب طواه ، فصار يملك أرضاً وعقاراً ، ولا يزال مجدا فى عمله يواصله باجتهاد ونجاح ، وقد انقطع عن المجتمع وانصرف عن كل الناس .

لقد كبر ازورار هذا الرجل الغريب الأطوار عنى ، فرميته بالكنود

ونكران الجميل ، وعظم علىّ أمر هذه الانسانية التى ابتات نفسها بشتى الأنماط من طباع بنيها وأشتات أمزجتهم وخلائقهم ، فانقلبت على الرجل وحقدت عليه ولكنى لم أنسه .

وحدث أنى زوجت ابنتى ودعوت إلى الاحتفال اقرانها طائفة من نخبة أصدقائى ومعارفى ، وتعمدت إغفال ذلك الناكر الجميل الذى كنت أود انتزاعه من بالى . ولشدّ ما أصبت بالدهش حين رأيته بين المدعوين يشق صفوفهم ويتقدم من ابنتى مهنئا إياها بالزواج وقد قلدها عقـــدا من الجواهر يبهر الأنظار وانثنى يهمّ بالخروج .

استمهلته فتمهل . . . قلت له إنه مدعوى الليلة برغم أنى لم أدعـــه فقبل ... انتحينا ناحية من المنصف نشرب ونأكل نخب العروسين ... رفع كأسه يشرب نخبى إذ مكنته من الانتصار على الحياة ، فرفعت كأسى بدورى أشرب نخب من يتنكر لصانع الجميل ... رأيته يبتسم ابتسامة الواثق المطمئن من نفسه ، الشاعر بسلطانه عليها والاعتزاز بها وقال : « لست أخشاك تكتب أو تلفق كتابا أسود » فى تسطير مساوئى ، أو تقول فىّ ما قيل فى رجال « النمورين » فى زمن الحرب ، أو ترمينى بما رمى به محامو وسماسرة المحاكم العسكرية . لقد افترصت يا سيدى فرصة فوضى الحرب ، فعملت مايجب علىّ عمـــله للكسب والربح فأصبحت من أثرياء الحرب . ولكنى تعاليت على السفه ، وتعاظمت على العظمة الزائفة ، وألجمت ألسنة الناس بالانصراف عنهـــم ، وقبعت فى دارى أفرح بأولادى وقد

يسرت لهم سبل المستقبل ، وعوذتهم بأقوم ركن من أركان الحياة وهو المال ». واستطرد بعد أن تمهل قليلا « قد يكون المال ياسيدى الصديق كل شىء فى الحياة ، ولكنه لايدانى ولن يدانى ثروة الروح . أما أنت ياسيدى فقد زودتنى يوم أنقذتنى من غرق محتوم بزادين : زاد مادى استعنت به على شق طريقى فى الحياة ، وزاد روحى انتصرت به عليها» .

يتيم

صامت

أمه بعيد مولده بساعات ، ودُقّ عنق أبيه إثر كبوة حصان فى ميدان السباق ولما يبلغ السنة الثانية من عمره . احتضنته عمته الأرملة ونشأ يتيما فى كنف خمسة أعمام عزاب لا تجمع بينهم إلا جامعة الأخوة وبيت يأوون إليه عقب عودتهم من أسفارهم المتوالية .

بينما كان الواحد من أعمام ذلك اليتيم يدربه على نطق الحروف الأبجدية والأعداد ، كان الثانى يعلمه شتيمة عمته . وبينما كان العم الثالث يعلمه حسن السلوك ، كان عمه الرابع يسقيه المسكر خلسة ليتم برؤية طفل يترنح ويُثرثر ويشتم . وهكذا كان اليتيم المسكين لعبة يتقاذفها أعمامه أصحاب الأمزجة المتباينة : أما عمته فلم تكن إلا راعية لطفل يقتل ضجر الترمل فى حيويتها المكبوتة .

كان معلم كتّاب القرية يستجير بالشيطان من عفرتة ذلك الصبى ، وكان فى الوقت نفسه يتحاشاه خوفا من أعمامه الوجهاء . أما الصبيان أنداده فقد كانوا يتباعدون عنه وينفرون منه لدلاله المائع وسماجته وغلظته .

كبر الصبي ، فأرسله أولياء أمره إلى مدرسة داخلية فى بيروت . وعند مانال شهادة البكالوريا جاء إلى عمه الخامس فى مصر وهو طبيب معروف المكانة عند كبار موظفى الحكومة وقد أوجدوا وظيفة لابن أخى صديقهم الطبيب .

كنت الصبى ، فالفنى ، فالشاب الذى ماشى صاحبنا واسمه « إبراهيم

المركّب» فى أطوار حياته ، حتى لقد كنت ، بحكم المصادفة ، رفيقه فى سفره على الباخرة التى أقلتنا من بيروت إلى ميناء بور سعيد . ومع أننا كنا صديقين حميمين ، كنت أجد تبايناً فى مزاجَينا ، كان يدنينى تارة منه وتارة أخرى يقصينى عنه ، ولم أكن أدرى متى أو كيف يكون راضياً عنى ، ولا الأسباب التى تثير غضبه علىّ . وقد صرفنا شطراً من صدر الشباب فى المجانة والعبث ، نختصم على من سعينا إلى إغوائها ، ونتصافى متى فرغنا ممن أغرينا من أنصاف النساء المحتشمات ؟ !

لم أكن فى شبابى أصيلا فى مجانتى ، بل كنت أقلد صاحبى إبراهيم فى عبثه ، وأجاريه فى تصرفاته . وأعترف أنى كنت فاقد الإرادة معه ، وقد كان يوجهنى وفق مشيئته ، فأطيعه انسياقا مع ضعفى حياله . لقد سلك بى مسلك المغامرات التجارية ليقصينى عن الحكومة مع أنى كنت أحمل الشهادة المدرسية التى يحملها هو ، وكان يقول لى : يقضى الواجب علينا ، نحن أبناء سورية الذين اتخذنا من مصر وطناً ثانياً لنا ، أن نترك وظائف الحكومة لأبناء البلاد الأصليين لأنهم أحق بها منا ، وأنهم وإن كانوا ليسوا أقدر منا الآن على القيام بأعباء التبعات فإن الأخلق بنا أن نفسح لهم هذا المجال الشائك ليجتازوا عقبات الاستغذاء والاستسلام للأجنبى الآمر ، فهم لا بد واصلون إلى الاعتماد على أنفسهم ولو بعد حين .

كان ينكر علىّ ادعائى بأنى تمصرت ويقول : إن نظرية « تعصب الدخيل » ما هى إلا عبارة جوفاء ألفنا سماعها من الأقدمين ليستغلّ بها

الجاهلون ممن يأخـــذون الأقوال المأثورة على علاتها كأنها منزلة من عوالم التقديس ، بيد أن الحقيقة تنفى عقيدة الشرك بالوطن ! !

ويقول إنه يحب مصر حبا صحيحاً ، ويحب أهلها الطيبة فى قلوبهم تجعل استغلالهم من أيسر الأمور وأبسطها . ولـكن الضمير يقضى بأن ننزح عن بلادهم أو نمتزج بهم ، حتى لا نتخذ نواة تسند صخرة من صخور المستعمرين والمستغلين من الأجانب ، أو عقبة تحول دون تقدم شعب أخذ أفراده يشعرون بالواجب نحو وطنهم ويرفعون عقائرهم يطالبون بحقهم فى الحياة .

وكان يقول : إنه سيترك مصر فيهاجر إلى العالم الجديد ، وسيعمل هناك مثل ما عمل أبناء سورية الذين سبقوه إليها وشق كل منهم طريقه فى حياة العمل والاجتهاد والمغامرة .

كان إلى جانب هذا الشعور السامى فى صاحبى إبراهيم المركب ميل شديد إلى المرأة ، لا يطمئن إلى واحدة من بنات حواء ، مايكاد يصل واحدة حتى ينبذها ويشيعها بلعنات خالدات ! ! ينكر الزوجية إنكاراً شنيعاً مشفوعا بأقذع الشتائم . كنت لا أنفك أرميه بالفسوق والفجور أيضا ، وأعجب له كيف تلتقى فيه نبالة الخلق والدنس الاجتماعى ! ! كان يهزأ بى ويسخر من مساءلتى ومن انسياقى فى المثاليات الخلقية التى تتحرك بها ألسنة الضعفاء والمقعدين والعاجزين من الشيوخ والكاذبين من كتاب الروايات والشعر ، وهـكذا كان جدلنا لا ينتهى .

قال لى مرة : يجمل أن نقضى معا إجازة الصيف فى رأس البر .

وسرعان ما غير رأيه وارتأى الذهاب إلى جزيرة قبرص حيث يكثر هناك العنب والفاكهة، ثم عاد فارتأى أن نذهب إلى رودس جزيرة الورد والمياه المعدنية . وأخيراً أركبنى باخرة ألقت مراسيها فى بيروت .

لم نأو منذ وصلنا لبنان إلى فندق واحد فى ليلتين متواليتين ، ولم نستقر فى ضيعة واحدة أسبوعاً كاملا ، بل كانت العربات والدواب تنقلنا تارة إلى الشمال وتارة أخرى إلى الجنوب ، مرة إلى مدينة دمشق ، ومرة إلى حلب ، كأننا جئنا نمسح بلاد سورية وجبال لبنان وأوديته نحصى عدد قراه وسكانها وكنائسه وأديرته .

تعبت من الانتقال من بلد إلى قرية ومن قطار إلى سيارة ، وضقت بهذا الصديق الجوّال . وكأنى به لمح فىّ ضجراً ينذر بالانفجار ، فأراد أن يعفينى منه ، فاقتادنى إلى بعلبك وتركنى فى تلك القرية القابعة فى أرض سهل تصفّر فيها الرياح فى الصيف وتغنى شياطين الوحدة فيها أنغاما رتيبة وتضل عفاريت الفكر والخيال فى قلعتها الخربة ، وذهب إلى حيث لا أدرى وتركنى قعيداً كالمشلول أنتظر أوبته .

انصرم حبل الإجازة بشهورها الثلاثة ، وأزف موعد العودة إلى مصر . ولكن أين صاحبى إبراهيم ؟ كيف أعود إلى مصر وحدى ؟ شددت رحالى أى حقائبى إلى بيروت . وما كاد القطار الساحفائى يقف فى المحطة حتى لقيت صديقى فى انتظارى على الرصيف . ولم يمهلنى الشوق حتى أعاتبه على تركه إياى طوال هاتيك الأيام فى فندق بعلبك وكأنه مصحة للمرضى الناقهين ، بل قال لى إنه احتجز لى مكاناً فى الباخرة المقلعة ظهر اليوم التالى ،

وإن ليلة حمراء شائقة تنتظرنى الليلة ... شعرت بنسيان الماضى وألم الوحدة فى بعلبك ، وفرحت بلقاء صديقى وبليلة حمراء دامية نقضيها فى بيروت .

لم ألمح فى صديقى إبراهيم منذ عرفته فرحاً وسروراً وبهجة كالذى رأيته فى نفسه المفراح وهو على ظهر الباخرة العائدة بنا إلى الاسكندرية . كان يبتسم لكل شىء ، ويفرح بالأشياء كأنها أشخاص لها عقول وأرواح وأجساد ، وكان يشارك فى فرحه من يعرف ومن لا يعرف من الركب حتى الخدم كان يمازحهم بروح من البساطة والمرح .

حمدت هـذا الانقلاب العجيب فيه ولـكنى لم أتبين أسبابه ، ولا حاولت تلمس بواعثه ؛ ولم يحفزنى الفضول وحب الاستطلاع إلى سؤاله أو استدراجه للتحدث إلىّ عن طوية نفسه وعما يفرحه ، ولـكن سكوتى كان حافزاً إياه إلى سؤالى السؤال الغريب التالى :

ما هو نوع الهدية التى تقدمها إلى عروسى إذا تزوجت ؟

أجبته على الفور ولم أكن أعهد فى نفسى ما كان منى البداهة وسرعة الخاطر : « سأقدم لعروسك ياصديقى العزيز كفناً من الحرير بلون الزهر وإكليلا من الشوك وقصبة مرضوضة » .

ضحك من جوابى ضحكة عالية وقال : أإلى هذا الحدّ سأكون زوجاً غير صالح حتى ترى أن زوجتى مسوقة إلى الموت ؟

قلت : أستغفر الله يا صديقى ! إنك مثال الفضائل المثلى والأخلاق السامية ! وكيف لا تكون من الفضلاء وأنت لا تقرب الفتيات الثيبات لأنهن يجررن ذيول التبعات والجرائم فى حين أن النساء المتزوجات وخاصة

العاقرات والأرامل وفيرات العدد، وهن أقرب منالا وأقل تحصناً من الفتيات الطائشات ! ! كيف لا تكون من أفاضل الأزواج أنت الذى لا يطيق التقلب على فراش واحد لأن أسرار اللذات كما تدعى هى فى تنويع الفرش!!! كيف لا تكون مثلا أعلى للزوج الطيب وأنت ترى أن نظام الزواج من امرأة واحدة إنما هو تشريع فاسد نظمه الضعيف ، أما الرجل القوى فقد أباح لنفسه ما طاب من النساء مثنى وثلاث ورباع وما ملكت الأيمان . ولعلك . . . . ولكن صديقى الشقى استوقفنى بإشارة من يده ثم أسكتنى فأضاع علىّ بذلك فرصة سانحة للانتقام منه وقد تركنى وحدى فى بعلبك كالمشلول القعيد . . . لقد استرضانى وربّت على كتفى وقال إنى أعذرك ياصديقى فيما قلت؛ لأنك منذ عرفتنى لم تنظر إلا إلى الصورة المنشورة فى خلائقى ، أما الصورة المطوية فى نفسى فلم ترها ولا أحسب أنك ستراها. ولكنى سأعدك بأنى سأكون على ماتحب بل سأكون على نقيض ما عرفته فىّ حتى اليوم .

عدنا إلى أعمالنا فى القاهرة ، بل عدنا إلى حيث نعوّض بل نسدد ماترا كم علينا من عمل تعطل طوال مدة غيابنا . وصرت لا أرى صديقى إبراهيم إلا إذا سمحت المصادفة فى الطريق أوحين أكون معه على موعد.

وفى ذات صباح وصلتنى دعوة منه يحملها رسول خاص يدعونى بها إلى لقائه فى مكان عينه لى . ولما التقينا قال إنه مسافر غداً إلى الاسكندرية وأن لابد من أن أرافقه إليها . ولما ترددت فى تلبية رغبته ، قال متوددا : ألا ترافقنى إلى الاسكندرية فتودعنى الوداع الذى قد لا ألقاك بعده ؟

قلت مازحا : أنتحارا غرقاً فى سبب عاطفى ؟

قال : لا ! بل هجرة لا عودة بعدها إلى الشرق .

تبينت الجد فى ملامح وجهه ومن نبرات صوته . عبثا حاولت استدراجه إلى الكلام لمعرفة أسباب هذه الهجرة الفجائية .

توهمت خلافا شجر بينه وبين رؤسائه أو مرءوسيه أدى إلى ملله من الوظيفة . وسوس لى سوء الظن أن شيطان الطمع أطغاه فدفعه إلى اختلاس ما فى عهدته من مال الحكومة ، خمّنت علاقة غرام اضطرمت ثم انطفأت لسبب تافه كما يقع فى الغالب لأكثر المحبين . لم أترك فرضا من الفروض الممكنة وغير الممكنة إلا افترضته سبباً لهذا الخراب الذى حاق بحياته خصوصاً أنى قد علمت أن أسرة معروفة بالوجاهة وعلو المكانة ترغب فى مصاهرته . وأخيراً قلت : لعله أصبح لا يحتمل البقاء مع عمه الدكتور الجلف الغليظ ، فآثر الهجرة على البقاء فى هذا البلد الطيب مع عمه الدعى المأفون .

نفى لى كل ما جال فى خاطرى من فروض دافعة إلى الهجرة ، وقال موعدنا صباح الغد فى محطة سكة الحديد . أما الآن فإنى عائد إلى البيت أجمع حقائبى .

⁂

أربعون عاما انقضت على ذلك الموقف عند ميناء الاسكندرية ، وقد أخذت الباخرة تبتعد رويداً رويداً وصديقى إبراهيم يلوح لى بمنديله تارة ويكفكف به دموعاً تنحدر من عينه تارة أخرى . أربعون عاما لم أسمع

غضونها خبراً واحـــداً عن ذلك الصديق الذى أبى إلا أن يقول لى إنه استدعانى للوداع الأخير ولـكنه لم يبح لى بالباعث عليه . أربعون عاما ما أطولها فى حياة الإنسان ، بل ما أقصرها ! كيف انصرمت إن فى هناءة أو سعادة أو شقاء وكدر ! .

فى عام من أعوام الرخاء واليسر ، طاب لى الاصطياف فى لبنان . ولـكنى ما كدت أستقر فى قرية فى قراه المنعزلة عن أماكن الاصطياف المعروفة ، حتى سمعت هاتفاً يهتف بى يدعونى بالحاح أن أذهب إلى قرية « حاصبيّا » .

حاصبيّا !!! ماهذه القرية النائية اللابدة فى كنف جبل أجرد ميت ؟ ما أهلها وأنا لاأعرف منهم أحداً سوى ذلك الصديق إبراهيم المركّب الذى أراد لنفسه الانتقال من القطر المصرى وهو ملىء بالحياة والسعادة يحسّ ساكنه بوجوده ، ليرحل إلى أمكنة مجهولة وشعوب همجية لاتصله بهم صلة ما . ولـكن أين هو ؟ أتراه على قيد الحياة أو اخترمه الموت الرابض المتربص بكل مولود ؟

لبيت نداء المجهول برغمى . . . و بعد ساعات وقفت بى السيارة فى ساحة قرية متواضعة كأنها الواحة بين جبال جرداء وأودية ميتة .

ليس فى القرية فندق أو مطعم ، وليس أمام الغريب إلا أن يطرق بيتاً لوجيه أو داراً لشيخ من مشايخ الحارات يجد فيه مأوى وطعاماً .

تذكرت بيت صديقى إبراهيم . وما كدت أذكر اسمه لمن تجمّع حول سيارتى من صبية أهل القرية و بعض رجالها ، حتى علت أصواتهم

تذكر اسم المحسن الناسك إبراهيم بك المركّب ، رجل البر بأهل قريته ، والإحسان الكريم على فقرائها ، الذى عاد من أميركا منذ ثلاثة أعوام لم يره أحد من أهالى القرية خلالها سوى مرات معدودات ، حيث كان يذهب فى أول كل عام إلى مركز القائمقام يدفع مبلغاً من المال يوزع بمعرفة شيوخ الطوائف الإسلامية والدرزية والنصرانية على الفقراء والمعوزين . وقال لى الرجل الذى رافقنى إلى بيت صديقى : إن المنادين كانوا ينادون بالشوارع والحارات معلنين هبات إبراهيم بك المركّب فيهرع المعوزون والفقراء متظاهرين مزغردين منادين بحياة الرجل الطيب إبراهيم بك .

يقع البيت فى طرف القرية ، وهو قائم على تل صعب المرتقى ، يحيط به سور من شجر لزيز لصيق ، يحرس بابه كلب هرّار عضّاض ، لم تقو السيدة العجوز الطاعنة فى الشيخوخة التى جاءت لترى من الطارق ، على كبح كلبها العبوس أو إقصائه بعيداً عنى ، او لم يتداركنا شيخ أبيض الشعر ما كدت أراه وأتبين ملامحه حتى ارتميت على عنقه أقبل رفيق المدرسة وعشير الصبا الصديق إبراهيم الذى قطعت معه ستين عاماً من العمر وتزيد :

قال لى وقد جلسنا على حشية فى أرض حجرة عاطلة من كل أثاث : لقد عرفت مقدمك وشعرت به ، وأحسست بك تسأل صبية أهل القرية عنى ، كنت أسمع صوتك يرن فى أذنى . وهأنذا أراك كأنك ذاك الفتى المرح الذى كنت معه نقيم المدرسة ونقعدها بمجانتنا وعبثنا ونكاتنا ،

لقد أرسلتك العناية الإلهية التى طالما أنكرناها عن رعونة وأفن لأودعك الوداع الأخير .

أوه يا إبراهيم بك ! هل عدت إلى الوداع والتوديع ؟

أجل أجل ياصديقى ! لقد ناديتك فاستجبت ، فلولا أن صلة روحية تصل بين قلبينا لما كنت سمعت ندائى . وما ناديتك إلا لأفضى إليك بسرّ كتمتك إياه زمنا طويلا . لقد حمات أوصاب ذلك السر وحدى ، وإنى على استعداد أن أنقدك مالا وافرا هو الكفارة الوحيدة عن ذلك السر ، وقال : ستنام الليلة معى هنا فى هذه الحجرة ، وسأحدثك طويلا فى أمرين اثنين ، أما الآن فعليك أن تذهب إلى المائدة حيث أعدت لك عمتى الخيزبون طعاما شهيا . أما أنا فقد اجتويت اللحم وصرت نباتيا منذ افترقنا فى مصر .

أقبل الليل ، فسكنت الدار وخرست القرية ، وأخذت الثعالب تعوى والكلاب تنبح ، وكأنه لم يبق فى الوجود سوى شبح صديقى إبراهيم يتكلم كأنه المحيط أمواجه فى أعماقه إن اعتلت صارت كالجبال الشامخة ، وإن غارت أصبحت كالأودية السحيقة . أما أنا فقد كنت جالساً أسمع . قال :

فى هذه الحجرة بدأ ثم تمّ كل شىء ، وسينتهى الأمر هنا فى هذه الحجرة وضرب الأرض بجمع يده .

نظرت إلى عينيه فإذا بهما تتقدان ؛ فاستفسرت بنظراتى لا بلسانى فقال :

يوم تركتك فى بعلبك قبل أربعين سنة جئت إلى هذا البيت ، أتذكر

ذلك ؟ فى هذا البيت يا صديق ولدتنى أمى ، وفيه مات أبى وأمى . أما أنا فقد نموت فيه وكبرت مع خادمة يتيمة مثلى تدعى حسيبة ، كم لعبنا صغاراً فى هذا البيت . لم تكن حسيبة خادمتى بالمعنى المعروف ، بل كانت لى تربا وصديقة وزوجة ، كنت أقاسمها كل ما كانت تعطينيه عمتى وأعمامى من حلوى وألعاب ، ولم أكن أوثر نفسى على حسيبة بشىء البتة إلا فى الثياب إذ لم يكن فى وسعى اقتسامها معها . وكان إذا بدر من عمتى ما يسىء إلى حسيبة كنت أواسيها وأسرّى عنها ، ولا أدع للحزن سبيلا إلى قلبها الرقيق الحنون .

حدث فى فصل من فصول الصيف أن جاء أحد أعمامى من بيروت لزيارتنا ، فلما رآنى وحسيبة قال لعمتى عنا : لقد صارا شابين ، ورفع يديه مشيرا إلى طولنا وعرضنا ، وأننا متى أتممنا دروسنا سيزوجنى إياها .

لا أستطيع أن أصف لك يا صديق مبلغ فرحى بهذه البشرى السعيدة التى صار عمى ذاك لأجلها أحب أعمامى إلىّ وأقربهم إلى قلبى بعد حسيبة . ولما كنت أنفرد أنا وزوجتى ، زوجة المستقبل ، فى حديقة المنزل ، كان يحلو لى أن أخاطبها بلهجة الأزواج ، كما كان أحب الأمور إليها إنجاز مطالب الزوج الآمر .

فصلت بيننا المدرسة ، ثم فرقنا الاغتراب ، ثم قطعت حياة المدينة كل صلة كانت لى بتلك اليتيمة ، بل قل إنى نسيتها وصرت لا أذكر ملامحها ولا قسمات وجهها وقد امّحت من مخيلتى .

لا أريد الإطالة فى حواشى الموضوع مع وفرتها وعلاقتها بصميمه

فلأصل بك إلى النتائج فأقول : لقيت بيتنا هذا على حاله لم تتبدل معالمه بسبب الإهمال. أما الحديقة الواسعة فقد نبتت فيها الأشواك والنبات الشيطانى وشاخت بعض أشجارها ويبس البعض الآخر إلا شجرتين من التفاح كنت غرست إحداهما بيدى إلى جانب الأخرى التى غرستها حسيبة، وقد نمتا وضربت أغصانهما عرضا وطولا . أما عمتى فقد أخنى الزمن عليها ولم يبق فى رأسها شعرة سوداء. وأما حسيبة فقد كانت حزينة النفس منكسرة القلب مشردة الذهن ، وقد قالت عمتى عنها إنها مصابة بنوع من الخبل والذهول ، كما قال الطبيب ، لابتعادها عن الناس ونفورها منهم .

ما كدت أستقر فى الدار حتى أخذت الحياة تدب فيها من جديد ، وقد عاد إلى عمتى بعض نشاطها ، كما نشطت حسيبة إلى تنقية الحديقة ، ونزع الأغصان الجافة فى الشجر ، والأوراق المتناثرة المتراكمة فى الأرض ، وإصلاح جداول المياه لسقى الأرض ، ورأيت عناية منها بشجرتى التفاح ، ولمحت فيها ما استرعى انتباهى ، وهو غصة فى الكلام ، ودمعة تنحدر من عينيها قبل الإجابة على سؤال ، وفضول يدفعها إلى سماع كل ما أقول، وتلصص علىّ فى غرفة نومى.

أشرت إليها مرة أن تصلح من شأنها وتبدل ثيابها ، فسرعان ما نظرت إلى عمتى نظرة فيها ما فيها من معانى التحدى ، وعادت حسيبة من غرفتها نظيفة حلوة تتدلى على كتفيها ضفيرتان من شعرها الفاحم الناعم وقد برزت نضارتها بأبهى ما تكون فى فتاة قروية فى سنها ، وقد لمحت الحزن فى عينيها والانكسار فى نفسها .

رفع رأسه إلىّ وقال : حياة الوحدة فى الجبال ياصديق ، والراحة من العمل ، وقوة الشباب ، تبعث من الغرائز ضبابا يثير العاطفة ، ويحجب الإدراك عن البصيرة ، ويحد العقل عن التدبير . ثم قال :

— أخذت صورة حسيبة تتبدى لى واضحة ، وقسماتها متناسقة ، وأخذ يفوح من صباها عطر وضباب يؤلفان لخيالها شبحاً يلازمنى فى اليقظة وفى النوم . آه ياصديق ! كم من ليلة تقلبت فيها على فراش من جمر الأرق ! وكم من مرة جُن فيها جنونى كلما جَن الليل .

لقد انقلب كل شىء فى البيت إلى ضده ، حتى طبائع الأشياء ارتدت أرديتها مقلوبة ، فصارت العمة العجوز نشيطة مرحة ، والفتاة البلهاء المجنونة عاقلة جميلة ، كأعقل النساء وأجملهن ، ومغرية كأنها الاغراء نفسه ، وغدوت أنا الشاب المتأنق الكثير الاعتداد بالنفس والكرامة والمحافظة على المظاهر أندسّ فى حجرة حسيبة ، وأتقلب على فراشها لايثنينى عنها سوى الفجر الفضاح ، وارتواء يعقبه ظمأ مجنون ، ومرح لا حدود له .

نسيت الزمن ياصديق كما نسيت الواجب ، ولم أنس الوجود . لقد حاولت إدماج الزمن والواجب والوجود فى لفة واحدة أطرحها فى بوتقة تضطرم حولها نيران شهوة مجنونة فتتصهر سبيكة معدنها لذة الشباب ومتعة الجسد ، وغايتها بقاء الحياة .

تناسيت تجاهل عمتى موقفى وتغاضيها عن انزلاقى فى حمأة لم أكن أفكر آنذاك أنها وحلة حمئة ، واندفعت كما يندفع الغرّ الذى يجهل السباحة فى البحر ، يضرب الأمواج بكفيه وهو عائم فى مكانه الضحضاح فى انتظار

موجة تغمره فيتوهم أنه عوّام صنديد !! تمنيت لو تدوم هذه الجهالة لأستمتع بلذات واقعية هى الصورة الأصيلة لحيوانية الإنسان .

... وأخيراً اقتلعت نفسى اقتلاعا من فردوس اللذة والحبور ، وتركت القرية بعد أن أودعت عمتى سرى ، ووقفتها على مقصدى ، وحذرتها من نقل أخبارى إلى أعمامى الذين ستباغتهم مفاجآتى إياهم بالأمر الواقع ، وأفضيت بقصدى إلى حسيبة التى قبّلت يدى ساعة وداعى ، رافعة الرأس ، مفتوحة العين ، يقظة الروح .

عدت إلى وظيفتى فى القاهرة أعمل بهدوء واطمئنان فى بناء حياة جديدة قوامها الأسرة ودوام البقاء .

أتممت تأثيث عش الزوجية ، ولم يبق لكماله سوى إحضار حسيبة تنيره بوجودها وتسعد ربه بها .

كتمت الأمر عمى الدكتور الذى كنت أقيم معه فى بيت واحد كما تعلم ، ولكنى كنت أواصل المكاتبة إلى عمتى أوصيها خيراً بحسيبة ، وأنبئها بموعد قدومى إليها .

ما كاد يُقبل فصل الصيف حتى عزمت على السفر إلى حاصبيّا . . . كتبت إلى أعمامى أدعوهم إلى اللقاء فى بيتنا فى القرية لأمر يدخل الفرح على نفوسهم ، وحددت شهر سبتمبر للفرحة الكبرى والمفاجأة السارة بزواجى من الآنسة ؟ ؟ وتركت علامات الاستفهام تثير رغباتهم وحب اطلاعهم .

بُغِتُّ حين رأيت عمى الدكتور يستقبلنى عند باب الدار فى القرية ،

وعهدى به قد سافر إلى فرنسا لحضور مؤتمر الأطباء . ولما دخلت القاعة لقيت أعمامى جالسين فى مقاعدهم واجمين .

جمدت الابتسامة على شفتى وعقد الوجوم لسانى ، فلم أسلم بل ارتميت على أريكة قريبة وسألت بالنظرات ما الخبر ؟ ؟ ... سمعت صوت بكاء عمتى كأنه نعيق البوم ، فانتفضت وقلت أين حسيبة ؟

همّ عمى الدكتور بترك القاعة ، وقد قرأت بلمحة خاطفة سطور الجناية مرسومة على جبينه . استمهلته بصوت مرتفع صارم أن يقف و بقبضة كفّ حازمة أن يقول أين حسيبة ؟ وماذا فعل بها ؟ ؟

لعنت عمتى المجرمة وقلت لها اخرسى ... وكفّى عن البكاء الكاذب والحزن المصطنع .

... ...

لقد تألب أعمامى علىّ بين معزٍّ حزين ، ومكفكف دمعى ومسكن هياجى ولاعنٍ تصرف أخيهم الطبيب العالم وأختهم الجاهلة الغبيّة .

لقد نفذ سهم الطب والجهل بفتاة يتيمة مسكينة أجنّها الكبت ، وشفاها الحب ، وقتلها أدعياء الشرف والصيت .

قُتلت حسيبة مجهضة وقُتل ابنها معها ، ولم تدر القرية بالجرم ولا بالمجرمين !!! لقد بصقت فى أرض القاعة بصقة الاحتقار ، ولم أدر إلى من ارتدت تلك البصقة أ إلى وجهى أم إلى وجه عمى فعمتى» .

ساد غرفتنا صمت شعرت برهبته وأخذ دبيبه يدب فى جسمى ، ولكنه لم

يطل ؛ لأن صديقى إبراهيم نهض ومشى بخطى ثقيلة إلى خزانة أخرج منها أضبار أوراق دفعها إلىّ وقال بعد أن جلس : « ودعتك فى الاسكندرية قبل أربعين عاما يوم سافرت إلى مجاهل المكسيك ، وكأن الله أراد لى أن أكفّر عن جنايتى ، فمدّ فى حبل حياتى ، وفتح لى خزائنه .

قلت لك إنى سأعطيك مالاً ، فإليك المال ، هاك مائة ألف من الجنيهات كسبتها كسباً حلالاً ، ابن بها الملاجئ للأيتام ، اعمل على وقاية اليتيمات من إغراء الرجال وعلى تزويجهن ، وابكنى ياصديقى كما بكيت نفسى لأنى ربيت فى اليتم .

⁂

ما كدت أصل إلى صوفر عائداً من حاصبيّا حتى نشرت الصحف نبأ وفاة المحسن الكبير المرحوم إبراهيم بك المركّب منتحرا .

ذكريات

حوراني

— ١ —

قرأ أربعة رجال من نزلاء مصر خبر الحفلة التى أزمع السوريون إقامتها لتكريم رئيس الوزراء الذى قدم مصر ليشترك فى حفلة افتتاح جامعة الدول العربية ، فطاب لكل واحد منهم أن يشارك مواطنيه فى هذا التكريم الدال على أن الاغتراب عن الوطن والانتساب إلى غيره لا يحدّان من العاطفة الوطنية ولا يصدّان عن الحدب على أبناء وطنهم الأول ، بل على العكس ، يوقظ حادث كهذا الكثير من خبايا الذكريات الكامنة الحبيبة إلى النفس ، خصوصاً ذكريات الطفولة والمدرسة والصبا .

لعل الذين اشتركوا فى حفلة تكريم الوزير السورى ، كان وجدانهم يضطرب بهذا الشعور أو بما يقاربه من أحاسيس بريئة ، إلا أربعة رجال أزعم أنهم اشتركوا فى هذا الاحتفال بدافع يخالف تلك الدوافع . ولملنا لو سألنا كل واحد من هؤلاء الأربعة عن السبب لعجز عن ذكره .

رأيتهم يدخلون قاعة الاحتفال واحداً إثر واحد كأنهم كانوا على ميعاد ، ولاحظت أنه ما من واحد من أعضاء لجنة الاستقبال التفت إليهم أو خصهم بكلمة ترحيب .

هرعت إليهم وحييتهم أطيب تحية وأجلستهم مجلساً حسناً .

ما كاد أولئك السادة يطمئنون فى مجلسهم حتى التفت كل منهم إلى جليسه ثم صوبوا نظرهم إلىّ ، فكانت مفاجأة من أبهج مفاجآت العمر وأحلاها ، وكان أبهج من ذلك وأحلى أننا تعانقنا وبكينا .

كنا أصدقاء . ولعل كلمة الصداقة تعجز عن تصوير الروابط الدموية التى كونت صداقتنا ، وقد فرقتنا حوادث جسام ابتدأت فى مستهل هـذا القرن ، ولم ننج منها إلا عقب إخفاق الثورة الدرزية ، ولياذنا بمصر هذا البلد الأمين .

كنا فتيانا أغرارا يوم اقتفينا إثر زعمائنا فى مناصبة الدولة العثمانية العداء ، وكنا فى حمأة من الضلال يوم حاربنا الإنجليز فى « كوت الإمارة» وعلى ضفاف قناة السويس مع الجند العثمانى جنبا إلى جنب ، وكنا فى غمرة من الجهل يوم اقتادونا لننتظم فى جيش الخلافة نقاتل الأتراك ، وكنا فى جنون مطبق يوم قاتلنا الفرنسيين فى « ميسلون » على أبواب دمشق ، ثم لم يدركنا الرشد إلا بعيد إخفاق آخر ثورة دموية، وكانت جبال الدروز ميدانا لآخر قتال اشتركنا فيه بعد حرب العصابات فى «غوطة» دمشق .

مرت بذهنى صور تلك الحادثات ، وتذكرت أياما قضيناها فى السجون، تارة مجتمعين وأخرى متفرقين. أما الليلة، أى بعد مضى حوالى ثلاثين عاما، فقد جمعتنا مصادفة من مصادفات المناسبات لتكريم الوزير السورى الأول الذى ساير ، ولا بد ، حياتنا الجهادية ، تلك التى فتحنا عليها أذهاننا قبل أن تفتح لأنوار المعرفة عقولنا .

هل يعرفنا الوزير ؟ هل نعرف الوزير ؟ مَن مِن شهود هذا الحفل الحاشد يعرفنا ؟ ! !

أسئلة ألقتها عيوننا بالنظرات ، و بالنظرات أجابت عنها ، فتفاهمنا كما

كنا نتفاهم على تنفيذ أمر خطير مدبر، فانسللنا من مكان الاجتماع متعاقبين ليضمنا مجلس هادئ نتكلم فيه أحرارا ! !

استوينا فى مقاعدنا بمقهى ندخن النارجيلة ونحتسى القهوة . نتكلم عن ماضينا وكيف قطعنا مرحلة الشباب فى الثورات والتشرد والمحاكمات والسجون ، حتى وهنت عزائمنا وكلّت هممنا ، فصرنا لانصلح إلا لِعَلْك حياتنا الماضية واجترار أحداثها .

قال أحدنا : « منذ أخفقت الثورة الدرزية بسبب اختصام زعمائها على الزعامة الكبرى ، وعلى استئثار كل فئة من المتحزبين بالأموال التى كانت ترد من هنا ومن هناك باسم الثورة ، انسللت من بين الصفوف ولذت بمصر أداوى جراحاً حملتها أوسمة لاتصدأ ولا تمجد حاملها ؟ ! !

فأجابه أحدهم مازحاً : « ظننت والله أنك سبقتنا إلى العالم الآخر » . فرد عليه بلهجة جدية قائلا : «أتحسب وفاء منى أن أرحل وأتركك هنا؟»

وقال آخر : « لقيت السلامة فى سكنى هذا البلد الذى لم يعرفنا أهله إلا عن طريق السياسة ؛ فصرت أعمل ، لاعمل المطمئن المستقر ، بل عمل إنسان « على سفر » . وبالرغم من هـذا القلق المعنوى أسست تجارة ، وبنيت أسرة ، وتطورت ميولى الوطنية فصارت أشبه بميول المشتاق لحبيب بعيد ، واستوطنت مصر » .

قال أحدهم يذكّر صديقه بموقعة مع الفرنسيين وقعت لهما « برأس بعلبك » ، وذكر آخر حادثة ثانية وقعت له يوم ثورة « حماه » ، وذكر هذا

واقعة جبال العلويين، وذاك حادثة «القنيطرة» وأخذوا يذكرون حوادث لثورات أشعلوها على الاستعمار الفرنسى .

قلت وقد كفوا عن اللغط : «حقا يا إخوانى أن ذكرياتكم سجل لتاريخ حقبة من حياة سورية ، وأن هاتيكم الذكريات ستبقى مكتومة فى الصدور أو مبعثرة على ألسنة الرواة ، حتى تصادف مؤرخا غير مأجور على تلفيق تاريخ لسورية . والآن وقد جمعتنا المصادفة ، هل لكم أن تذكروا أروع حادث وقع لكم فى جهادكم وأخطر موقف وقفتموه ؟ »

لم يدم صمتهم طويلا ، فقد انبرى واحد منهم وقال :

— ٣ —

لست أحسن التنميق ولا التزويق ، إنما أقص الواقعة كما وقعت : أخذنا الأعداء على غرة ، كانت أجنادهم فى ذلك النهار عديدة ، وكانوا لوفرتهم وتراصّهم هدفا لطلقات من بنادقنا لاتخطئ ولا تطيش . أخذتنا نشوة الإمعان فى التقتيل ، وعلى الأخص حين رأينا طرائدنا تتلوى وتتساقط . كنا نسرف فى إطلاق الرصاص ونرمى رمى الواثق المطمئن ، ولكنى فطنت إلى نفاد ذخيرتى . وكان يحمل صناديق الذخيرة إلينا فى متاريسنا فتيان كتموا حماستهم من شدة سرورهم بالقتال والنصر . أخذت الشمس تزول وتنحدر، ولم أفطن إلى عطش أوجوع ، وإنما فطنت إلى نفاد ذخيرتى . ولما التفت إلى زميل كان إلى جانبى لأستعير منه طلقات لبندقيتى ، ألفيته فى حالة من التوتر والانفعال يعبر عنها بزغردات الظافر الناجى . ولكن نشوة الظفر تلك لم تطل إذ افتقد جعبة (الخرطوش)

فإذا بجيو بها فارغة. فالتفت يطلب النجدة منى، ولم نلبث أن سمعنا خطوات إخواننا تقترب منا تطلب قذائف .

أنَّى لنا بذخيرة ونحن لا نعرف لها مستودعا غير أكتافنا، والصناديق ملقاة على الأرض فارغة أمامنا؟ أجمعنا على الإفلات من العدو الذى أدرك نفاد عتادنا ، فأخذ يتقدم بل يسرع فى الدنوّ منا .

عمدنا إلى خيولنا ، وكانت مربوطة فى غيضة تبعد قليلا عن ميدان المعركة. وما كدنا نقطع بها البقعة الكثيفة الأشجار حتى تبين لنا أن أسراباً من جند الأعداء تسرع من ناحيتين لتطويقنا . أطلقنا الأعنة لأفراسنا التى استثارتها صيحاتنا لننجو من الرصاص المصوب إلينا من الجانبين ومن الخلف وكان يتساقط علينا كالبَرَد .

ليس من المغالاة فى شىء أن أقول لكم يا إخوانى إن الخيول تنخو ككرام الرجال ، وتنتشى إذا انتصرت كطبائع الناس. وما أنس من شىء لا أنس كيف كنت أتشبث بعرف فرسى كالطفل ، وكيف ألصقت صدرى بالسرج تاركا لها العنان ، وكيف تمهلت الخيل ثم التفتت ، ثم أطلقت صهيلا تتحدى به متبعينا ، وتندد بعجزهم عن إدراكنا ، وأخذت تمشى الهوينى متبخترة كالغيد الهيف .

زال عنا خطر إحداق أعدائنا بنا ، وأخذنا نفكر أين نبيت ؟ وماذا نأكل ؟ قال أحدنا ممازحا : ننامُ حيث تنام خيولنا ، ولكن هل فى وسعنا أن نأكل من زادها ؟ !

نبه مزاح صاحبنا معدنا فأخذنا نتلمسها . وبينما نحن نلاطف معدنا الحاوية ، إذا بأزيز طيارة يملأ الفضاء .

نسينا الجوع كما نسيتنا معدنا . وفى هنيهة وجيزة وبدافع من حب البقاء ، عمدنا إلى خيولنا ، فأنمناها على جوانبها متباعدات ، وانبطحنا بعيدين قليلا عنها .

عجباً لتلك الأفراس! كيف أدركت الخطر الداهم فاستنامت كأنها خائفة مثلنا ، وكأن حب البقاء كان رائدها أيضا !

أخذت الطيارة تهبط كأنها فوقنا وتحوم حولنا . لقد كشفنا قائدها الخبيث . رأيتها ترتفع ، ثم سمعت بأذنى سكوت محركاتها ، وسمعت أيضا أزيز القنبلة فى سقوطها وقد أدركت هدفها .

نزلت النازلة ورأيتها رأى العين تسقط على قيد أمتار منى ، أحسست أنا الذى ما آمن قط بغير قدرة الإنسان ، أن كل ذرة من وجودى تهتف بقوة وضراعة تستنجد بخالق الإنسان ، وقدرت أنى ورفاق من الموت على طرفة عين .

انقضت الثوانى والدقائق . لقد تفككت فى غضونها كل عضو فى مفاصلى ، إلا ذهنى فقد بقى فى يقظة يرتقب الموت المحتوم حين انفجار القنبلة ...

القنبلة لم تنفجر ! لم تنفجر القنبلة لأنها صادفت أرضاً رخوة ! .

⁂

آه ... يا للأسف ! ! صرخة صرخها أحد المنهتين ، وقد خرجت

من أعماق صدره ، وقد أتبعها بقوله : « والله لو انفجرت تلك القنبلة الخائبة وجرحت فرسا من أفراسكم لجزعت عليها ، ولكن الله سلم » !!!

— ٣ —

« حكايتى أيها الأصدقاء تدور حول الأثر الذى تركته حوادث الجهاد الوطنى فى نفسى ، لا حول أبلغ حادث حدث لى :

كنت أتوقع عند ما عيّنتُ ضابطاً فى الجيش أن ألقى مشاكسة من زملائى الفرنسيين وتعالياً على الضابط « العربى » أى علىّ أنا ، فوطنت النفس على التمسك بالكرامة مع السلاسة واللطف .

نجحت بعض النجاح فى السير على منهاجى ، ولكنى لم أنجح فى قطع ألسنة أولئك الضباط عن القدح فى قومى وسب « السوريين القذرين » ولاسيما حين كانت تضمنا مائدة شراب . ولم يكن يندّ عنهم إلا ضابط من رتبتى كان يقف دائما فى وجه أولئك القادحين ، فيصدهم عن المضىّ فى طعن الأمة العربية إكراما لى ، « أنا زميلهم الضابط الكيّس ، وللخلصاء الذين عرفناهم من السوريين» . فكان أولئك الضباط الأجلاف ينحرفون عن الموضوع ، ناسبين ذلك إلى ما يلاقون من الشعب من كراهية و بغض ، وكان ذلك الضابط — نضر الله وجهه — يدافع عن السوريين ، ويصف حكام قومه بالطيش والهوج فى مدّ حكمهم وبسط سلطانهم على شعب لا تنقصه خصيصة من خصائص الاستقلال ، ولا تعوزه الدراية بتحمل التبعات الاجتماعية ولا الوعى القومى ؛ فقد استمد مزاياه من تاريخه العربى ومن الانقلابات التى تأثر بها فى مطلع هذا القرن » . وكان يقول :

« لقد أيقظنا نحن الفرنسيين نفوس الشعب السورى ذاته بتلقينه فى مدارسنا مبادئ ثورتنا للحرية والمساواة وتعاليمنا فن الحياة » ، وكان يساير زملاءه فى الطعن على الدهماء فى كل الأمم ؛ لأنهم يتساوون مع السوائم فى إرضاء شهواتهم وتسكين معدهم ، ولا فرق فى طوائف العامة بين شرقى وغربى ولا بين لون ولون أو جنس وجنس . وكان كلام ذلك الضابط الأريب يشجعنى على إبراز فضائل قومى الأصيلة والمكتسبة ، وعلى إبداء الرأى أيضا فى الوسائل التى قد تقرّب بين الحاكم والمحكوم .

اشتعلت نار الثورة فى جبل الدروز ، وسرعان ما امتدت ألسنتها إلى دمشق فمدينة « حماه » .

جن جنون الفرنسيين ، فأمر قائدهم الأرعن الأعلى بإطلاق المدافع تدك قذائفها أحياء دمشق ، وانطلق أجناد الجيش فى « حماه » يمعنون فى قتل الناس وإحراق بيوتهم ومزارعهم . كانت أخبار الثورة فى كل ميدان تصلنا فى الميعاد . عرفنا ما حلّ بحملة الجنرال « ميشو » وكيف مزقها أبطال الدروز شر ممزق . وعرفنا أيضا فزع زهرة شبان دمشق من طلاب المدارس العليا يلتحقون بثوار الغوطة . وهكذا كانت أخبار إخواننا الثائرين فى داخل البلاد من نساء ورجال ، وأخبار رجال السياسة منا ، البعيدين عن مواطن الخطر ، تصلنا منبئة بقيامها كلها متساندة متضافرة تعمل لجعل هذه الثورة هى الأخيرة للخلاص التام من حكم الأجنبى المستعمر .

عملت ما فى وسعى لأقنع الأجناد الوطنيين تحت إمرتى أن نهرب بسلاحنا وميرتنا للالتحاق بإخواننا المجاهدين لتحرير الوطن . وقبل انبلاج

الصبح كانت دوابنا المثقلة بالأحمال على بضعة كيلومترات من مرابط الثوار. والفضل فى هروبنا يعود إلى زملائى الضباط الفرنسويين وقد أثقلت أدمغتهم «بالحشيش» فى تلك الليلة . . .

. . . فى منتصف ليلة من الليالى ، سرنا بطوائف منظمة من الثوار نقطع الطريق على حملة من الفرنسيين جاءت لتطويقنا من ناحية الشمال . بلغنا الموضع الذى قدرت أن الواقعة ستقع فيه، ووزعت رجالى توزيعاً يوهم العدو بكثرة عددنا ، وأوصيت بعدم الإسراف فى إطلاق الرصاص ليكون متواصلا، ووقفت فى مكان مرتفع مع بعض زملائى نرقب الموقعة ونديرها.

لم أر ولم أسمع فى حياتى عن موقعة التزم رجالها ضبط النفس والعمل بإقدام وشجاعة وحزم كتلك الموقعة التى كانت كأن الصخور والمتاريس وأكوام الحجارة هى التى تصدّ قنابل المدافع ، وتنفجر فتطلق النار فتصيب الهدف ، وكأن رجالنا الأبطال ليسوا من لحم ودم ، بل قدر محتوم ينزع أرواح المستعمرين .

أخذت الشمس تميل إلى الغروب ، ولم يتقدم العدو خطوة إلى الأمام، ولم يتبين له أ آدميون يقاتلونه ، أم مردة وشياطين يصبون عليه الموت. وبينما نحن فى هذا الموقف ترفرف فوقنا أجنحة الشعور بالظفر على العدو و إفساد خططه ، إذا بصوت من الخلف ينادينى باسمى مقرونا بصفة حبيبة إلى قلبى « يا صديقى العزيز ، لا تظن أنى أغتالك غدراً بل أقتلك دفاعا عن قومى وشرفى العسكرى » وصوب بندقيته وسددها .

يكفى أن أقول لكم يا إخوانى إن خمس بندقيات صوّبت فى لحظة

واحدة إلى صدر «صديق العزيز» وإلى من كان معه من ضباط فرنسويين، وأن رصاصتى كانت أسبق القذائف إلى قلبه .

. . . بكيت ذلك الصديق ، وما برحت أبكى سجاياه وشمائله ، لأنه « إنسان مهذب » .

سأل واحـــد من المستمعين بتلهف عن مصير تلك الموقعة ، فأجاب المتحدث بصوت تخنقه العبرة الجامدة : « لقد تولى رفاقى إدارتها بنجاح حتى ارتد العدو ، أما أنا فقد واريت قتيلى التراب » .

⁂

من يراقب أولئك الأصـدقاء يؤلفون دائرة فى وسطها نرجيلات تكركر وأنفاس تطلق فى الهواء ، يحس بأن لا فارق بين المتحدث والسامع فى اعتصار أحداثه من قرارة نفسه ، وأن الـكلمات المهموسة تبلغ مكمن الضمير وحنايا الوجدان .

— ٤ —

أحدثكم أيها الرفاق عن حادثين متناقضين يسبقان أحداث الثورات الداخلية ، لعلى أعيد بهما نضرة الحياة إلى وجوهكم وقد فنيت فيها البشاشة وغاضت مياهها .

وحكايتى لا بد لها من مقدمة أقرر لـكم فيها أن المبادئ التى يصطنعها أصحاب الأغراض الوطنية و يتخذها الشبان مثلا عليا ، ليست إلا سطورا مسجاة فى صدورنا ، أو جثثا مدفونة فيها ، قيمتها فى الثرثرة عنها ،

وهى على وجه التمثيل كالبخور الذى يطلقه المشعوذ . أما تنفيذ المبادى والعمل للمثل العليا ، أو العمل على الأقل فى حيز غير بعيد عنها ، فليست هى فى وسع الرجل ولا فى طاقة الشعب الذى قضى عليه بأن يكون محكوما ولا رادّ لقضاء القوة عليه ! !

ولبيان ذلك أقول : ألفنا نحن الطلاب العرب ، أيام كنا نطلب العلم فى الاستانة ، جمعية اتخذنا لها القانون الذى قننه لنا أصحاب المثل العليا فى الوطنية والقومية ، وأقسمنا بالله وبالشرف والوطن على تنفيذه بسلاحنا ودمائنا .

ساقتنا الدولة العلية التى كنا نعمل للخلاص منها والانعتاق من عبوديتها ، إلى محاربة دولة غربية كنا نؤمن آنذاك أن لا سبيل لنيل استقلالنا الوطنى وتحقيق آمالنا القومية العربية ، إلا بمساعدتها إيانا .

وقفنا أنا ورفاقى نتحسس المبادئ المدفونة فى صدورنا ، وإذا الأوامر العليا تستحثنا على التقدم والقتال ، وشعرنا بأن قوة جارفة من حديد ونار تجرفنا من الوراء وتدفع بنا إلى الأمام .

حاربنا ! أجل لقد حاربنا من قال زعماؤنا عنهم إنهم عدّتنا للاستقلال ، وقاتلنا قتال المجاهدين فى صفوف من قالوا لنا إنهم أعداء استقلال وطننا وقوميتنا ! ! !

لقد أنستنا الحرب إنسانيتنا وردتنا إلى أصولنا المتوحشة . كنت فى بداية الحرب ، وقد خفت ميدان القتال ، لا تفارقنى الأشباح المرعبة ، والخيالات المزعجة لشخوص من كنت أراهم يسقطون بضربة سيف ،

أو بطلقة مسدس أو بندقية أطلقها من دون وعى، وما عتّمت أن تأكدت مشاعرى فصرت كالجزار ينحر الكبش وهو يكبّر .

صدرت إلينا الأوامر من القيادة بأن نحتفظ بمواقفنا مهما كلفنا الأمر، وبأن نعمل على التقدم مهما بهظ الثمن . كانت المدافع تدوى ، والقذائف تحفر فجوات فى الفضاء فتكظم بزخمها نفس من يدنو من طريقها العريض ، وبرغم ذلك كنا كالمناجذ نتقدم فنحفر حفرة تتحول فى وقت قصير إلى خندق يقينا ويلات المدافع الرشاشة .

لم نكن نحفل بمن يستشهد منا ، أو يجرح فيتلوى كالطفل الممفوص ، بل كان همنا أن نتقدم وأن نقى أنفسنا ، ونحتفظ بمراكزنا ، كأن فى ذلك منجاة لنا من موت يحوم فوقنا .

يالله يا أصدقائى من نزعة حب البقاء كيف تدفع بنا إلى الموت حبا للحياة . كان الوجود بأكمله فى ناحية ، وكنت أنا وحدى فى الناحية الأخرى، فلو فنى الوجود بمن عليه وبقيت أنا وحدى لكنت الوجود بتمامه وكماله ، ولم أكن أفكر ساعة الموقعة إلا فى شىء واحد هو «أنا» .

لا أدرى كيف لم تغب شمس ذلك النهار؛ لأن الجو كان مناراً بآلاف من ومضات المدافع وشرار البنادق ، فكان يتألف من مجموعها نور وضاء ساعد على مواصلة القتال .

لم يكن الزاد ينقصنا ، وأكوام الذخيرة تطمئننا على أن فى وسعنا الدفاع عن أنفسنا حبا فى البقاء .

أين الراحة ؟ كيف السبيل إليها والموقعة ما برحت تتطلب الدماء ؟ !

لقد ارتوت هاتيك البطاح بدماء المتقاتلين فلمن منهم تنبت الإصـــلاح يا ترى ؟ كنا نتقدم تارة ونتراجع أخرى . هذه هى الحرب السجال ولـكن متى تنتهى الموقعة أو تخمد نارها ؟ .

انبلج الفجر ، وأشرقت الشمس ، وأقبل الليل الثانى !! لم أعد أحس بحماسة للحياة ولا بدافع إلى البقاء ، إنمـا أنا فى حاجة إلى النوم ، إلى نوم عميق طويل ينقذنى من نفسى ، إلى هروب من هذه النفس التى تحوطها عناية الله ، و ينزل بها بلاء الإنسان .

يا للشيطان !! هل هناك تناقض بين غايتين : غاية الله فى الحياة وغاية الإنسان فى إزهاق الحياة ؟ .

ألقيت بجسمى فى حفرة من هذه الحفر التى شققناها بمعاولنا وأظافرنا فصارت خنادق طويلة عميقة . ألقيت مسدسى كأن لم تكن لى حاجة إليه ونمت .

كم ساعة قطع النوم من عمرى ؟ لا أدرى ! ! أقسم لـكم يا إخوانى أن لو اتصل نومى بالأبدية لمـا قلت إلا أنه الراحة الـكبرى . . . ولـكنى استيقظت . لقد أيقظتنى مياه غمرت الخندق وقد بلغ ارتفاعها ثمى . وقد أخذت أمتصها مع التنفس وكدت أختنق من الغصّة . نهضت كالـكلب المبلول ، أنفض جسمى والسعال يكاد يخنقنى ، وكنت أرتعد من البرد ، و إذا بجماعة من الجند يصو بون فوهات بنادقهم إلى صدرى ، سمعت منها رطانة تنبهنى إلى أنى أسير .

عرفت بعد أن بلغت مكان الاعتقال من زملائى الأسرى الذين جاءوا بعدى أننا لم نخسر تلك الموقعة ، ولم نفقدها كزنا الأمامية ، ولـكن

حين شعر الأعداء بإعيائنا وبحاجتنا إلى الراحة ، خففوا ضغطهم علينا ، وعند ما ركنّا إلى الراحة مستسلمين للنوم ، حوّلوا مجرى مياه النهر نحونا فغمرت خنادقنا وأغرقتها ، فهلك فيها من هلك غرقا ، ونجا من الموت من أفاق من النوم وداهمته قناصة الأعداء ليلقى منهم الأسر كما لقيته أنا . ومن العجب العجاب أن حكومة الدولة التى أسرتنى ، بعثت بى إلى ميدان حرب جديد أقاتل فيه مع إخوانى مَن كنا نقاتل فى صفوفهم ! ! والفرق بين الدولتين أن العثمانيين ضنوا علينا بالاستقلال وأن الانجليز وعدونا به فصدقنا وعدهم ! ! ! والأغرب من هذا ، أنى بينما كنت أحارب الأتراك بسلاح من الانجليز معار إلى الدولة العربية التى ارتجلتها السياسة ارتجالا ، التقيت عفـــواً بأخى الضابط يحافظ على الخط الحديدى الحجازى الذى انتدبت لنسفه بالديناميت ، وقد ساعدنى على إتمام مهمتى وعاد هو ورجاله معى لا أسرى حرب بل جنوداً بالجيش العربى ، جيش الخلافة العربية .

— ٥ —

تلبس القصة الواقعية ، فى بعض الأحايين ، ثياب الأسطورة الخرافية وتبذها فى الغرابة . وكثيرا مايحار العقل فى تحليل وقائعها فينسبها إلى المصادفة والاتفاق . فإذا أعيته الحيل وعجز عن بلوغ الحقيقة المادية لجأ إلى القول بالقدرية والأسرار المجهولة . وأخيراً يعترف اعتراف المستسلم بالعناية الإلهية ، وهى قدرة فوق طاقة العقل الانسانى تحده عن إدراك الغاية الإلهية أى صنع العجائب والخوارق والمعجزات .

وحكايتى أيها الأصدقاء فيها الأعجوبة الخارقة ، والأسطورة الخرافية الحية ، والواقعة المـادية .

« كنا عشرين رجلا ، منا الطبيب والجراح والمساعد والصيدلى فضلا عن الأتباع ، وكان عددهم يناهز الثمانين ، وقد انتحينا ناحية فى مؤخرة الجيش فى ميدان القتال اتخذناها مستشفى للأعمال الجراحية والإسعافات الطبية . وكان كلما تقدم المحاربون من رجالنا ، تأتينا النقالات حاملة الجرحى فنضمد البسيط منها ونقطع الرأى فى الأمور الخطيرة التى تتطلب السرعة .

تقدم جنودنا تقدماً محسوساً أدركنا مداه من الدوى الذى كان يصل إلى أسماعنا مخنوقا خافتا حتى حسبنا أننا انقطعنا عن الجيش .

لم نأبه لتقدم الجيش لأن حاملى المحفات لم يشكوا من طول الشقة الفاصلة بيننا وبينهم . وبينما نحن فى مكاننا ذاك تستغرقنا أعمالنا إذا بالدوى قد عاد ، وإذا بصفير الرصاص وقرقعة القنابل وجلبة القتال كأنها استردت نشاطها الحى ، وأخذت المدافع تقصف وترعد وبدت كراتها تشق الفضاء وتمزقه تمزيقاً ، ولكنها كانت بجانب الاتجاه السوى .

لفتت نظر زميل طبيب إلى تحوّل المعركة من الجبهة إلى الجناح فأجابنى إجابة تهكمية أسكتتنى . كان زميلى المتهكم ذاك ، سبط القوام ، عريض الألواح ، بدينا ، يحسن السخرية والتندر . لقد أحس ذلك الزميل مبلغ ألمى من تهكمه فدنا منى يلاطفنى ويطيب خاطرى .

فى تلك اللحظة سقطت قذيفة بالقرب منا . أقول سقطت ، لأن الهجاجة التى أثارتها ، والرجال الذين تراكموا منا فانقلبوا على الأرض ، والحصى والحجارة والأتربة وقد عقدت سحابة داكنة فوقنا ، ثم تساقطت علينا ، جعلتنى أرجح سقوطها بالقرب منا .

ألقيت جسمى بين يدى زميلى الطبيب البدين، فاحتضننى كما تحتضن الأم ولدها ، ورأيتنى أتشبث به كصبى مقرور أو مرعب .

انفجرت القذيفة بعيداً عنا ، ولم أكد أنحى وجهى عن صدر زميلى حتى رأيت محفات جرحانا تطير فى الفضاء ، وأحسست بجسمينا تحملهما عاصفة شيطانية كأنها خرجت علينا بغتة من أودية الجحيم ، ففقدت الوعى !!

لست أدرى كم كان عدد الدقائق أو الساعات التى رحت فيها فى غيبوبة أحسبها تماثل راحة الموت . . . ولكنى تنبهت على معالجة إخراج وجهى من حمأة كادت تكتم أنفاسى .

الحمأة لزجة كريهة الرائحة ، وجفونى مقفلة بإحكام . . . أجفلت من نفسى . . . حاولت التخلص مما أنا فيه لأتبين حالى على حقيقتها ، فإذا ركبتاى لاتسعفاننى بالنهوض وساعداى غريقان فى بركة من دم ولحم .

دم ولحم ؟ ! صورة مفزعة وثبت إلى ذهنى فكدت أجن . أخذت أنزع يدى كأنى ملسوع ، ورفعت أصابعى إلى جفونى . . . رفعت أصابع ملطخة تنقذ جفونا ملطخة ! ! حاولت مجتهداً أن أبتعد عن بركة أنا الغريق فيها ، لأنى ما كدت أنقلب على ظهرى حتى أحسست أنى أتوسد أرضا مرملة . . . استعنت بالرمل على تنظيف يدَىْ فكانتا تتلطخان من جديد ؟ ! هل هما مجروحتان ؟ لا أحس ألم جراح ولكننى أشم رائحة الدم . . . عدت إلى أصابعى أمسحها بالرمل ، و إلى أهداب جفونى أغسلها بلعابى . كنت حتى تلك الساعة أجهل أن الدم كريه الطعم كريه الرائحة . ولكن لا مناص من إنقاذ جفونى من التصاق أهدابها حتى أرى على أى حال أنا وفى أى بقعة من الوجود أكون ، وهل من وسيلة إلى تضميد جراحى ؟ وهل هى

تنزّ وتتفصد ؟ ولم يجل فى خاطرى أنى كنت ميتاً ولا فى حالة قريبة من الموت ، بل كانت دوافع الحياة تدفعنى إلى الكفاح للنجاة مما أنا فيه .

انفتح جانب من إحدى عينى ، فاندفع النور فيها أو كأن النور انبثق من هذا الجانب !!! حاولت الجلوس فإذا بركبتىّ تشعراننى بألم محتمل ، طأطأت رأسى وأخذت أفتح ثغرات أخرى فى أهدابى .

هأنذا أرى الحياة من جديد ! !

شمس ساطعة ، وسماء صافية ، وصحراء هادئة ساجية ، كأن ليس عليها سواى أنا الهشم المجروح وهذه الجثة المهروسة التى كنت غريقا فيها . جثة مهروسة حقا ، أنا هرستها بجسمى فآويت إلى أحشائها لأتقى الموت فحملت عبئه وحدها وأنقذتنى . جثة إنسان ضخم الجسم غرقت فيها من شدة ضغط القنبلة المعادية ، ولم تكن غير جثة زميلى الطبيب المفراح المزّاح .

فى تلك اللحظة التى تبينت فيها جثة زميلى وتحققت أنه الميت وأنا الحى ، فى تلك اللحظة جمد ذهنى ، وركد تفكيرى ... كنت أنظر فلا أرى ، وأعى فكأنى لا أعى ! كانت صورة جثة زميلى المهروسة ماثلة أمامى ، أرى الأحشاء مندلقة بشكل تنفر منه العين وتتقزز منه النفس ، وأشم رائحة نتنة هى رائحة الإنسان ! !

لازمنى ذهول مركّز . كنت أرى فرق الجيش تمر بى من بعيد ، وثاب إلىّ رشدى ساعة أقبل رسل الإنسانية فحملونى على محفة إلى المستشفى .

* * *

ساد المجلس صمت ... أما أنا ، فلم أكد أهم بحكاية أخرى من وفائى حتى شعرت كأن رفاقى يستهلوننى بل يستوقفوننى ، وقال لى أذلقهم لسانا :

عليك أنت أن تدون حكاياتنا ولا عليك أن تبتدع لنا حكايات . يكفيك أنك ألهبت شعورنا الوطنى و إحساسنا القومى بما كنت تكتب وتنشر على زعم أنه مقتبس أو مستمد من أرواح الزعماء ؛ فالزعماء يا صاحبي أرواح لا يفهمها الشعب ، لأنهم فى مستوى أعلى من إدراك الشعب ، ولأنهم من فرط حبهم للشعب يفنون فيه أو يجملونه يندغم بهم . أما زعماؤنا أو معايير عظمتهم فهى رهينة بما يلبسون من ثياب الأسطورة ليصبحوا خرافة لا حقيقة ، و بما يثير الأتباع والأذناب حولهم من هالات قدسية و يطلقون من بخور التدجيل والتعمية ، و بما يتشدقون هم به فى مجالسهم لا يهرفون به من هراء فوق المنابر .

زعماؤنا يا أصحابي شخوص متحركة . ولـكن هل تعرفون من هم الذين يحركون هاتيك الشخوص؟ أتعلمون أنهم لا يتحركون إطلاقا من أنفسهم ؟ أتدركون أنهم لا إرادة لهم لا فى الحركة ولا فى السكون ؟ أتدرون أنهم يعلمون أنهم شخوص تتحرك بدوافع غـــير منظورة لا يراها الشعب ولا يعرفها ؟ أتدرون أنهم يضرعون إلى الله أن يديم عليهم نعمة جهل الشعب لتبقى لهم لذة العظمة والاحترام وألقاب الفخامة والدولة ومتعة الغيبوبة فى الهروب من الحقيقة و بقاء سكرة الفرح بأنهم زعماء ؟

هيا هيا يا إخوانى إلى النوم ؛ فقد انتصف الليل . علينا غدا أن نعمل فى تجارتنا لـكسب رزق أولادنا ، وعلى أولادنا بعد غد أن يكونوا عميا مثلنا يقدسون الزعماء ، أو مبصرين يضعون شخوص الزعماء وعظمتهم تحت مواطئ الأقدام .

فهـــرست

لقيط ٩
السميم ٢٠
بكارة ١٤
الجارم ٧٣
غاية المرأة ٩٥
الغريق ١٢٩
يتـــيم ١٤٧
ذكريات ١٦٥

تصويب

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٣٩	١٥	رمع	رفع
٤٣	٨	ابنها	ابنتها
٤٩	١٨	المتشرد	المتشدّد
١٥٧	١٦	جحرة	حجرة

للمؤلف

أدباء معاصرون

بحوث فى النقد الأدبى

و

شعاب قلب

مجموعة من روائع القصص

عنوان المؤلف

٥٦ شارع حبيب شلبي

بالظاهر

تليفون ٥٠٢١١